

## سورة الكهف

مكية إلا آية ٢٨ ومن آية ٨٣ إلى غاية آية ١٠١ فمدنية وآياتها ١١٠ نزلت بعد الغاشية . وهي مكية في قول جميع المفسرين . وروي عن فرقة أن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله : ﴿جُرُأً﴾ ، والأول أصح . وروي في فضلها من حديث أنس أنه قال : من قرأ بها أعطي نوراً بين السماء والأرض ووقي بها فتنة القبر . وقال إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة : إن رسول الله ﷺ قال : «ألا أدلكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك ملا عظمتها ما بين السماء والأرض لتليها مثل ذلك» . قالوا : بلى يا رسول الله؟ قال : «سورة أصحاب الكهف من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام وأعطي نوراً يبلغ السماء ووقي فتنة الدجال»<sup>(١)</sup> ذكره الثعلبي ، والهدوي أيضاً بمعناه . وفي مسند الدارمي عن أبي سعيد الخدري قال : من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق<sup>(٢)</sup> . وفي صحيح مسلم عن أبي الدرداء أن نبي الله ﷺ قال : «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال»<sup>(٣)</sup> . وفي رواية «من آخر الكهف»<sup>(٤)</sup> . وفي مسلم أيضاً من حديث النواس بن سيمعان : «فمن أدركه يعني الدجال فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف»<sup>(٥)</sup> . وذكره الثعلبي . قال سمره بن جندب قال النبي ﷺ : «من قرأ عشر آيات من سورة الكهف حفظاً لم تضره فتنة الدجال» ، ومن قرأ السورة كلها دخل الجنة»<sup>(٦)</sup> .

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَقْمَلُونَ الصَّالِحِينَ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكِّيَّنَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ ذكر ابن إسحاق : أن قريشاً بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود وقالوا لهما : سلاهم عن محمد وصفا لهم صفته وأحبراهم بقوله ؛ فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علمٌ ليس عندنا من علم الأنبياء ؛ فخرجوا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ، ووصفا لهم أمره ،

(١) ضعيف جداً وهو مرسل : وابن أبي فروة هذا متروك .

(٢) صحيح مرفوعاً وموقوفاً : الدارمي (٣٤٠/٧) (٤٥٤/٢) في سننه موقوفاً والحاكم (٣٩٩/٢) مرفوعاً ، وصحح الألباني هاتين الروايتين وانظر صحيح الجامع (٦٤٧٠ - ٦٤٧١) وزاد عزوها إلى البيهقي وفيه لفظ «أضاء له النور ما بين الجمعتين» ، والله أعلم .

(٣) صحيح : مسلم (٨٠٩) في صلاة المسافرين وقصرها .

(٤) هذا الرواية عند مسلم (٢٥٧/٨٠٩) مكرر ، وفيه قال قتادة : قال شعبة عن آخر الكهف ، وهي شاذة وحكم عليها الألباني (٥٧٦٠) بالشذوذ في ضعيف الجامع (٥٧٦٠) .

(٥) صحيح : مسلم (٢٩٣٧) في الفتن ضمن حديث طويل عن النواس رضي الله عنه .

(٦) لم أجده هكذا .

وصفاً لهم صفته وأخبرهم بقوله؛ فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علمٌ ليس عندنا من علم الأنبياء؛ فخرجوا حتى قدما المدينة، فسألوا أبحار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفاً لهم أمره، وأخبرهم ببعض قوله، وقالوا لهم: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. فقالت لهما أبحار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان أمرهم؛ فإنه قد كان لهم حديثٌ عجب. وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه. وسلوه عن الروح، ما هي؛ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط حتى قدما مكة على قريش فقالوا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ﷺ قد أمرنا أبحار يهود أن نسأله عن أشياء أمرنا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم. فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، قد كانت لهم قصة عجب، وعن رجل كان طوفاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هي؟ قال فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم بما سألتهم عنه غداً» ولم يستثن (١). فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ فيما يزعمون خمس عشرة ليلة، لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف (٢) أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة ليلة، وقد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه؛ وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سأله عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف والروح (٣). قال ابن إسحاق: فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: «لقد احتسبت عني يا جبريل حتى سوت ظنا» فقال له جبريل: «وما تنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً» [مريم: ٦٤]. فافتتح السورة تبارك وتعالى بحمده، وذكر نبوة رسوله ﷺ لما أنكروا عليه من ذلك فقال: «الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ﴿ [الكهف: ١] يعني محمداً، إنك رسول مني، أي تحقيق لما سألوها عنه من نبوتك. ﴿ولم يجعل له عوجاً﴾ (١) قيماً﴾ أي معتدلاً لا اختلاف فيه. ﴿لينذر بأساً شديداً من لدنه﴾ أي عاجل عقوبته في الدنيا، وعذاباً أليماً في الآخرة، أي من عند ربك الذي بعثك رسولا. ﴿ويشهر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً﴾ (٢) ما كتب في أبدأ﴾ أي دار الخلد لا يموتون فيها، الذين صدقوك بما جئت به مما كذبت به غيرهم، وعملوا بما أمرتهم به من الأعمال. ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ يعني قريشاً في قولهم: إنا نعبد الملائكة وهي بنات الله. ﴿ما لهم به من علم ولا آياتهم﴾ الذين أعظموا فراقهم وعيب دينهم. ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ أي لقولهم إن الملائكة بنات الله. ﴿إن يقولون إلا كذباً﴾ (٥) فلعلك باحع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾ لحزنه عليهم حين فاته ما كان يرجوه منهم، أي لا

(١) لم يستثن: أي لم يقل: إن شاء الله.

(٢) أرجف القوم: إذا خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفن للسان (رجف).

(٣) ضعيف: الطبري (١٩٣/١٥-١٩٣) بسند فيه جهالة شيخ ابن إسحاق المحدث له.

تفعل . قال ابن هشام : ﴿بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ مهلك نفسك ؛ فيما حدثني أبو عبيدة . قال ذو الرمة :

ألا أيهذا الباخعُ الوجدُ نفسه بشيءٍ نَحْتَهُ عن يَدَيْهِ المَقَادِرُ

وجمعها باخعون وبخعة . وهذا البيت في قصيدة له . وتقول العرب : قد بخعت له نُصْحِي ونَفْسِي ، أي جَهدت له . ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال ابن إسحاق : أي أيهم أتبع لأمرِي وأعمل بطاعتي . ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي الأرض ، وإن ما عليها لفان وزائل ، وإن المرجع إليّ فأجزِي كلًّا بعمله ؛ فلا تأسى ولا يحزنك ما ترى وتسمع فيها . قال ابن هشام : الصَّعيدُ وجه الأرض ، وجمعه صَعْدٌ (١) . قال ذو الرمة يصف ظيباً صغيراً .

كأنه بالضحا ترمي الصعيد به دبابة في عظام الرأس خرطوم

وهذا البيت في قصيدة له . والصعيد أيضاً : الطريق ، وقد جاء في الحديث : «إياكم والقعود على الصُّعدات» (٢) يريد الطرق . والجُرُزُ : الأرض التي لا تنبت شيئاً ، وجمعها أجزاز . ويقال : سنة جُرُزٌ وسنون أجزاز ؛ وهي التي لا يكون فيها مطر . وتكون فيها جدوبة وبيس وشدة . قال ذو الرمة يصف إبلاً :

طَوَى النَّحْزُ والأجزاء ما في بطونها فما بقيت إلا الضَّلُوعُ الجِراشُ

قال ابن إسحاق : ثم استقبل قصة الخبر فيما سأله عنه من شأن الفتية فقال : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أي قد كان من آياتي فيما وضعت على العباد من حجتِي ما هو أعجب من ذلك . قال ابن هشام : والرقيم الكتاب الذي رُقم بخبرهم ، وجمعه رُقم . قال العجاج :  
وَمُسْتَقَرُّ المِصْحَفِ المُرْقَمِ

وهذا البيت في أرجوزة له . قال ابن إسحاق : ثم قال : ﴿إِذْ أَوْى الْفَتِيَّةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (٣) فصرنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً (٤) ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا . ثم قال : ﴿وَنَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي بصدق الخبر ﴿إِنَّهُمْ فَتِيَّةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرَزَقْنَاهُمْ هُدًى﴾ (٥) ورَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ لَهَا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أي لم يشركوا بي كما أشركتم بي ما ليس لكم به علم . قال ابن هشام : والشَطَطُ العُلُوُّ ومجاوزه الحق . قال أعشى بني قيس بن ثعلبة :

أَتَتَّهُمْ وَلَا يَنْهَى دَوِي شَطَطُ كَالطَّعْنِ يَذْهَبُ فِيهِ الزَّيْتُ وَالْقَتْلُ

وهذا البيت في قصيدة له . قال ابن إسحاق : ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ . قال ابن إسحاق : أي بحجة بالغة . ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (٦) وإذ اعتزلتموهم وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ (٧) وترى الشمس إذا

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/١٩٠-١٩٢) عن ابن إسحاق به .

(٢) إنما هو إياكم والجلوس في الطرقات رواه البخاري (٦٢٢٩) في الأدب ، مسلم (١١٤/٢١٢١) في اللباس والزينة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

ولفظ المصنف بنحوه «ما لكم وللمجالس الصعدات ، اجتنبوا مجالس الصعدات» رواه مسلم (٢١٦١) في السلام عن أبي طلحة رضي الله عنه .

طَلَعَتْ تَرَاوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴿١٤﴾ قال ابن هشام: ترازور تميل؛ وهو من الزور. وقال أبو الزحف الكلبي يصف بلداً:

جَدَبَ الْمُنْدَى عَنْ هَوَانَا أَزُورُ يُنْضِي الْمَطَايَا خَمْسَةَ الْعَشْرُ

وهذان البيتان في أرجوزة له. ﴿تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ تجاوزهم وتركهم عن شمالها. قال ذو الرمة:

إِلَى ظُنُنٍ يَقْرُضُنَ أَقْوَارَ مُشْرِفٍ شِمَالاً وَعَنْ أَيْمَانِهِنَّ الْفَوَارِسُ

وهذا البيت في قصيدة له. والفجوة: السعة، وجمعها الفجاء. قال الشاعر:

أَلْبَسْتَ قَوْمَكَ مَخْزَاةً وَمَنْقَصَةً حَتَّى أَبِيحُوا وَحَلُّوا فَجْوَةَ الدَّارِ

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي في الحجية على من عرف ذلك من أمورهم من أهل الكتاب من أمر

هؤلاء بمسألتك عنهم في صدق نبوتك بتحقيق الخبر عنهم. ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (١٧) وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلْتُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلِمَهُمْ بَاسِطٌ فِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ ﴿١٨﴾ قال

ابن هشام: الوصيد الباب. قال العبيسي واسمه عبد بن وهب:

بَارِضٍ فَلَاحٍ لَا يَسُدُّ وَصِيدُهَا عَلِيٌّ وَمَعْرُوفِي بِهَا غَيْرُ مُنْكَرٍ

وهذا البيت في آيات له. والوصيد أيضاً الفناء، وجمعه وصائد ووصد ووصدان. ﴿لَوْ اطَّلَعْتَ

عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾. إلى قوله: ﴿الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ أهل السلطان والملك منهم. ﴿لَتَتَّخِذَنَّ

عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ (٢١) سَيَقُولُونَ ﴿يعني أحيار اليهود الذين أمرهم بالمسألة عنهم. ﴿ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُهُمْ كَلِمَهُمْ

وَيَقُولُونَ خَمْسَةَ سَادِسُهُمْ كَلِمَهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةَ وَثَامِنُهُمْ كَلِمَهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا

تُمَارِ فِيهِمْ﴾ أي لا تكابريهم ﴿إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ فإنهم لا علم لهم بهم. ﴿وَلَا

تَقُولُنَّ لَشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكُمْ غَدًا﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْخُرْ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبٍ مِنْ هَذَا

رَشْدًا﴾ أي لا تقولن لشيء سألوك عنه كما قلت في هذا إني مخبركم غداً، واستثن مشيئة الله،

وادكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربي لخبر ما سألتموني عنه رشداً، فإنك لا تدري ما أنا

صانع في ذلك. ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ أي سيقولون ذلك. ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أي لم يخف

عليه شيء مما سألوك عنه<sup>(١)</sup>.

قلت: هذا ما وقع في السيرة من خبر أصحاب الكهف ذكرناه على نسقه. ويأتي خبر ذي

القرنين، ثم نعود إلى أول السورة فنقول:

قد تقدم معنى الحمد لله. وزعم الأخفش والكسائي والفراء وأبو عبيد وجمهور المتأولين أن في

أول هذه السورة تقديماً وتأخيراً، وأن المعنى: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل

له عوجاً. و﴿قِيَمًا﴾ نصب على الحال. وقال قتادة: الكلام على سياقه من غير تقديم ولا تأخير،

ومعناه: ولم يجعل له عوجاً ولكن جعلناه قيماً. وقول الضحاك فيه حُسن، وأن المعنى: مستقيم، أي

(١) سيرة ابن هشام (١/١٩٤-١٩٥) والكلام كله نقلًا عنها.

مستقيم الحكمة لا خطأ فيه ولا فساد ولا تناقض. وقيل: ﴿فِيمَا﴾ على الكتب السابقة يصدقها. وقيل: ﴿فِيمَا﴾ بالحجج أبدأ. ﴿عَوَجًا﴾ مفعول به؛ والعوج (بكسر العين) في الدين والرأي والأمر والطريق. وبفتحها في الأجسام كالحشب والجدار؛ وقد تقدم. وليس في القرآن عوج، أي عيب، أي ليس متناقضاً مختلفاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ وقيل: أي لم يجعله مخلوقاً؛ كما روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عَوْجٍ﴾ قال: غير مخلوق. وقال مقاتل: ﴿عَوَجًا﴾ اختلافاً. قال الشاعر:

أدوم بودي للصديق تكراً  
ولا خير فيمن كان في الود أعوجاً

﴿فِيمَا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي لينذر محمد أو القرآن. وفيه إضمار، أي لينذر الكافرين عقاب الله. وهذا العذاب الشديد قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة. ﴿مَنْ لُدُّهُ﴾ أي من عنده. وقرأ أبو بكر عن عاصم «من لدنه» بإسكان الدال وإشمامها الضم وكسر النون، والهاء موصولة بياء. الباقون «لُدُّهُ» بضم الدال وإسكان النون وضم الهاء. قال الجوهري: وفي «لدن» ثلاث لغات: لُدُنْ، وَلُدَى، وَلُدَى. وقال:

مِنْ لُدِّ لِحْيَتِهِ إِلَى مُنْحُورِهِ

المنحور لغة في المنحَر.

قوله تعالى: ﴿وَيُنشِرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْعَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم. ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهي الجنة: ﴿مَا كُنِينَ﴾ دائمين. ﴿فِيهِ أَبَدًا﴾ لا إلى غاية. وإن حملت التبشير على البيان لم يحتج إلى الباء في «بأن». والأجر الحسن: الثواب العظيم الذي يؤدي إلى الجنة.

﴿وَيُنذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ وهم اليهود، قالوا عزيز ابن الله، والنصارى قالوا المسيح ابن الله، وقريش قالت الملائكة بنات الله. فالإنذار في أول السورة عام، وهذا خاص فيمن قال لله ولد. ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ «مِنْ» صلة، أي ما لهم بذلك القول علم؛ لأنهم مقلدة قالوه بغير دليل. ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ أي أسلافهم. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ «كَلِمَةً» نصب على البيان؛ أي كبرت تلك الكلمة كلمة. وقرأ الحسن ومجاهد ويحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق «كلمة» بالرفع؛ أي عظمت كلمة؛ يعني قولهم اتخذ الله ولداً. وعلى هذه القراءة فلا حاجة إلى إضمار. يقال: كبر الشيء إذا عظم، وكبر الرجل إذا أسن. ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ في موضع الصفة. ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي ما يقولون إلا كذباً.

﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ ءَآثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ ءَآثَرِهِمْ﴾ «بَخِيعٌ» أي مهلك وقاتل؛ وقد تقدم. ﴿آثَرِهِمْ﴾ جمع أثر، ويقال إثر. والمعنى: على أثر توليهم وإعراضهم عنك. ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي

القرآن. ﴿أسفا﴾ أي حزناً وغضباً على كفرهم؛ وانتصب على التفسير.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ﴿١﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا ﴾ .

فيه مسألتان:

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا ﴾ «ما» و «زينة» مفعولان. والزينة كل ما على وجه الأرض؛ فهو عموم لأنه دال على بارئه. وقال ابن جبير عن ابن عباس: أراد بالزينة الرجال<sup>(١)</sup>؛ قال مجاهد. وروى عكرمة عن ابن عباس أن الزينة الخلفاء والأمراء<sup>(٢)</sup>. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا ﴾ قال: العلماء زينة الأرض. وقالت فرقة: أراد النعم والملابس والشمار والخضرة والمياه، ونحو هذا مما فيه زينة؛ ولم يدخل فيه الجبال الصم وكل ما لا زينة فيه كالحيات والعقارب<sup>(٣)</sup>. والقول بالعموم أولى، وأن كل ما على الأرض فيه زينة من جهة خلقه وصنعه وإحكامه. والآية بسط في التسلية؛ أي لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها فإنما جعلنا ذلك امتحاناً واختباراً لأهلها؛ فمنهم من يتدبر ويؤمن، ومنهم من يكفر، ثم يوم القيامة بين أيديهم؛ فلا يعظمنّ عليك كفرهم فإنما نجازيهم.

**الثانية:** معنى هذه الآية ينظر إلى قول النبي ﷺ: «إن الدنيا خضرة حلوة والله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون»<sup>(٤)</sup>. وقوله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا» قال: وما زهرة الدنيا؟ قال: «بركات الأرض»<sup>(٥)</sup> خرجهما مسلم وغيره من حديث أبي سعيد الخدري. والمعنى: أن الدنيا مستطابة في ذوقها معجبة في منظرها كالثمر المستحلى المعجب المرأى؛ فابتلى الله بها عباده لينظر أيهم أحسن عملاً. أي من أزهدها وأترك لها؛ ولا سبيل للعباد إلى بغضة ما زين الله إلا أن يعينه على ذلك. ولهذا كان عمر يقول فيما ذكر البخاري: اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا، اللهم إني أسألك أن أنفقه في حقه<sup>(٦)</sup>. فدعا الله أن يعينه على إنفاقه في حقه. وهذا معنى قوله عليه السلام: «فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس كان كالفدي يأكل ولا يشبع»<sup>(٧)</sup>. وهكذا هو المكثرون الدنيا لا يقنع بما يحصل له منها

(١) انظر المحرر الوجيز (٣٦٥/١٠) وعزاه السيوطي (٤٨٥/٩) في الدر المنثور لابن المنذر وابن مردويه عن سعيد بن حبيب.

(٢) انظر ابن عطية (٣٦٥/١٠) في المحرر الوجيز.

(٣) في الدر المنثور (٤٨٥/٩) عزاه لأبي نصر السجزي في الإبانة به.

(٤) صحيح: مسلم (٢٧٤٢) في الرقائق.

(٥) صحيح: البخاري (٦٤٢٧) في الرقاق، مسلم (١٠٥٢) في الزكاة.

(٦) علقه البخاري في الرقاق باب (١١) ووصله الحافظ ابن حجر (٢٥٩/١١) في الفتح وعزاه للدارقطني في غرائب مالك وفيه ضعف، والله أعلم.

(٧) صحيح: البخاري (١٤٧٢) في الزكاة، مسلم (١٠٣٥) في الزكاة عن حكيم بن حزام رضي الله عنه.

بل همته جمعها؛ وذلك لعدم الفهم عن الله تعالى ورسوله؛ فإن الفتنه معها حاصله وعدم السلامة غالبه، وقد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه. وقال ابن عطية: كان أبي رضي الله عنه يقول في قوله: ﴿أحسن عملاً﴾ أحسن العمل أخذٌ بحق وإنفاقٌ في حق مع الإيمان، وأداء الفرائض واجتناب المحارم والإكثار من المندوب إليه.

قلت: هذا قول حسن، وجيز في ألفاظه بليغ في معناه، وقد جمعه النبي ﷺ في لفظ واحد وهو قوله لسفيان بن عبد الله الثقفى لما قال: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك في رواية: غيرك. قال: «قل آمنت بالله ثم استقم» (١) خرجه مسلم. وقال سفيان الثوري: ﴿أحسن عملاً﴾ أزهدهم فيها. وكذلك قال أبو عصام العسقلاني: ﴿أحسن عملاً﴾ أترك لها. وقد اختلفت عبارات العلماء في الزهد؛ فقال قوم: قصر الأمل وليس بأكل الخشن وليس العباء؛ قاله سفيان الثوري. قال علماؤنا: وصدق رضي الله عنه فإن من قصر أمله لم يتأنق في المطعومات ولا يتفنن في الملابس، وأخذ من الدنيا ما تسر، واجترأ منها بما يبلغ. وقال قوم: بغض المحمدة وحب الثناء. وهو قول الأوزاعي ومن ذهب إليه. وقال قوم: ترك الدنيا كلها هو الزهد؛ أحب تركها أم كره. وهو قول فضيل. وعن بشر بن الحارث قال: حب الدنيا حب لقاء الناس، والزهد في الدنيا الزهد في لقاء الناس. وعن الفضيل أيضاً: علامة الزهد في الدنيا الزهد في الناس. وقال قوم: لا يكون الزاهد زاهداً حتى يكون ترك الدنيا أحب إليه من أخذها؛ قاله إبراهيم بن أدهم. وقال قوم: الزهد أن تزهد في الدنيا بقلبك؛ قاله ابن المبارك. وقالت فرقة: الزهد حب الموت. والقول الأول يعم هذه الأقوال بالمعنى فهو أولى.

### ﴿وَأِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾

تقدم بيانه. وقال أبو سهل: تراباً لا نبات به؛ كأنه قطع نباته. والجرز: القطع؛ ومنه سنة جرز.

قال الراجز:

قد جرفتهنَّ السنون الأجرز

والأرض الجرز التي لا نبات فيها ولا شيء من عمارة وغيرها؛ كأنه قطع وأزيل. يعني يوم القيامة، فإن الأرض تكون مستوية لا مستتر فيها. النحاس: والجرز في اللغة الأرض التي لا نبات بها. قال الكسائي: يقال جرزت الأرض تجرز، وجرزها القوم يجرزونها إذا أكلوا كل ما جاء فيها من النبات والزرع فهي مجرزة وجرز.

### ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾

مذهب سيبويه أن ﴿أم﴾ إذا جاءت دون أن يتقدمها ألف استفهام أنها بمعنى بل وألف الاستفهام، وهي المنقطعة. وقيل: ﴿أم﴾ عطف على معنى الاستفهام في لعلك، أو بمعنى ألف الاستفهام على الإنكار. قال الطبري: وهو تقرير للنبي ﷺ على حسابه أن أصحاب الكهف كانوا

(١) صحيح: مسلم (٣٨) في الإيمان.

عجبا، بمعنى إنكار ذلك عليه» أي لا يعظم ذلك بحسب ما عظمه عليك السائلون من الكفرة، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم وأشيع؛ هذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن إسحاق. والخطاب للنبي ﷺ؛ وذلك أن المشركين سألوه عن فتية فقدوا، وعن ذي القرنين وعن الروح، وأبطأ الوحي على ما تقدم<sup>(١)</sup>. فلما نزل قال الله تعالى لنبيه عليه السلام: أحسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا؛ أي ليسوا بعجب من آياتنا، بل في آياتنا ما هو أعجب من خبرهم. الكلبي: خلقت السموات والأرض أعجب من خبرهم. الضحاك: ما أطلعتك عليه من الغيب أعجب. الجنيد: شأنتك في الإسراء أعجب. الماوردي: معنى الكلام النفي؛ أي ما حسبت لولا إخبارنا. أبو سهل: استشفهم تقرير؛ أي أحسبت ذلك فإنهم عجب. والكهف: الثقب المتسع في الجبل؛ وما لم يتسع فهو غار. وحكى النقاش عن أنس بن مالك أنه قال: الكهف الجبل؛ وهذا غير شهير في اللغة. واختلف الناس في الرقيم؛ فقال ابن عباس: كل شيء في القرآن أعلمه إلا أربعة: غسلين وحنان والأواه والرقيم<sup>(٢)</sup>. وسئل مرة عن الرقيم فقال: زعم كعب أنها قرية خرجوا منها<sup>(٣)</sup>. وقال مجاهد: الرقيم واد<sup>(٤)</sup>. وقال السدي: الرقيم الصخرة التي كانت على الكهف<sup>(٥)</sup>. وقال ابن زيد: الرقيم كتاب غم الله علينا أمره، ولم يشرح لنا قصته<sup>(٦)</sup>. وقالت فرقة: الرقيم كتاب في لوح من نحاس. وقال ابن عباس: في لوح من رصاص كتب فيه القوم الكفار الذين فرّ الفتية منهم قصتهم وجعلوها تاريخاً لهم، ذكروا وقت فقدهم، وكم كانوا، وبين من كانوا. وكذا قال الفراء، قال: الرقيم لوح من رصاص كتب فيه أسماءهم وأنسابهم ودينهم وعن هربوا. قال ابن عطية: ويظهر من هذه الروايات أنهم كانوا قوماً مؤرخين للحوادث، وذلك من نبل المملكة؛ وهو أمر مفيد. وهذه الأقوال مأخوذة من الرقيم؛ ومنه كتاب مرقوم. ومنه الأرقم لتخطيطه. ومنه رقمة الوادي؛ أي مكان جري الماء وانعطافه. وما روي عن ابن عباس ليس بمتناقض؛ لأن القول الأول إنما سمعه من كعب. والقول الثاني يجوز أن يكون عرف الرقيم بعده، وروى عنه سعيد بن جبير قال: ذكر ابن عباس أصحاب الكهف فقال: إن الفتية فقدوا فطلبهم أهلهم فلم يجدوهم فرفع ذلك إلى الملك فقال: ليكونن لهم نبا، وأحضر لوحاً من رصاص فكتب فيه أسماءهم وجعله في خزانته؛ فذلك اللوح هو الرقيم<sup>(٧)</sup>. وقيل: إن مؤمنين كانا في بيت الملك فكتبا شأن الفتية وأسماءهم وأنسابهم في لوح من رصاص ثم جعلاه في تابوت من نحاس وجعلاه في البنيان؛ فالله أعلم. وعن ابن عباس أيضاً: الرقيم كتاب مرقوم كان عندهم فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى عليه السلام. وقال النقاش

(١) ولكنه ضعيف كما سبق .

(٢) كاد هذا الأثر أن يكون صحيح الإسناد لولا اضطراب رواية سماك عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الطبري (١٥/٢٠٠) .

(٣) لا بأس بإسناده : الطبري (١٥/١٩٩) قلت : وبعضهم يرويه عن كعب كما ذكر المصنف هنا .

(٤) صحيح إلى مجاهد : السابق / نفسه .

(٥) السابق (عن ابن عباس منقطعاً وعن مجاهد وعن سفيان ) الجبائي .

(٦) وربما كان هذا هو الصحيح .

(٧) وقد قال الطبري إلى هذا .

عن قتادة: الرقيم دراهمهم. وقال أنس بن مالك والشعبي: الرقيم كلبهم. وقال عكرمة: الرقيم الدواة. وقيل: الرقيم اللوح من الذهب تحت الجدار الذي أقامه الخضر. وقيل: الرقيم أصحاب الغار الذي انطبق عليهم؛ فذكر كل واحد منهم أصلح عمله.

قلت: وفي هذا خبر معروف أخرجه الصحيحان<sup>(١)</sup>، وإليه نحا البخاري<sup>(٢)</sup>. وقال قوم: أخبر الله عن أصحاب الكهف، ولم يخبر عن أصحاب الرقيم بشيء. وقال الضحاك: الرقيم بلدة بالروم فيها غار فيه أحد وعشرون نفساً كأنهم نيام على هيئة أصحاب الكهف، فعلى هذا هم فتية آخرون جرى لهم ما جرى لأصحاب الكهف. والله أعلم. وقيل: الرقيم وإد دون فلسطين فيه الكهف<sup>(٣)</sup>؛ مأخوذ من رقمة الوادي وهي موضع الماء؛ يقال: عليك بالرقمة ودع الضفة؛ ذكره الغزنوي. قال ابن عطية: وبالشام على ما سمعت به من ناس كثير كهف فيه موتى، يزعم مجاوروه أنهم أصحاب الكهف وعليهم مسجد وبناء يسمى الرقيم ومعهم كلب رمة. وبالأندلس في جهة غرناطة بقرب قرية تسمى لوشة كهف فيه موتى ومعهم كلب رمة، وأكثرهم قد تجرد لحمه وبعضهم متماسك، وقد مضت القرون السالفة ولم نجد من علم شأنهم أثارة. ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف، دخلت إليهم ورأيتهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة، وعليهم مسجد، وقريب منهم بناء رومي يسمى الرقيم، كأنه قصر مخلوق قد بقي بعض جدرانه، وهو في فلاة من الأرض خربة، وبأعلى غرناطة مما يلي القبلة آثار مدينة قديمة رومية يقال لها مدينة دقيوس، وجدنا في آثارها غرائب من قبور ونحوها.

قلت: ما ذكر من رؤيته لهم بالأندلس فإنما هم غيرهم؛ لأن الله تعالى يقول في حق أصحاب الكهف: ﴿لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: ١٨]. وقد قال ابن عباس لمعاوية لما أراد رؤيتهم: قد منع الله من هو خير منك عن ذلك؛ وسيأتي في آخر القصة. وقال مجاهد في قوله: ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ قال: هم عجب. كذا روى ابن جريج عنه؛ يذهب إلى أنه ليس بإنكار على النبي ﷺ أن يكون عنده أنهم عجب. وروى ابن نجيب عنه قال: يقول ليس بأعجب آياتنا.

﴿ إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ روي أنهم قوم من أبناء أشرف مدينة دقيوس الملك الكافر، ويقال فيه: دقليوس ويقال فيه دقنيوس. وروي أنهم كانوا مطوقين مسورين بالذهب ذوي ذوائب، وهم من الروم واتبعوا دين عيسى. وقيل: كانوا قبل عيسى، والله أعلم. وقال ابن

(١) قصد بذلك حديث الثلاثة الذين حبستهم الصخرة بالغار، وقد رواه البخاري (٣٤٦٥) في الأنبياء ومسلم

(٢٧٤٣) في الذكر والدعاء عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) كذلك في صحيحه في أحاديث الأنبياء باب (٥٢) ثم أتبع هذا بحديث الغار، وأكد ذلك الحافظ ابن حجر (٥٠٦/٦) في الفتح.

(٣) وما الفائدة من معرفة المكان؟ أو الأسماء؟ أو حتى المدة؟ إنما هي العبرة السارية إلى يوم القيامة والله أعلم.

عباس: إن ملكاً من الملوك يقال له دقيانوس ظهر على مدينة من مدائن الروم يقال لها أفسوس. وقيل هي طرسوس وكان بعد زمن عيسى عليه السلام فأمر بعبادة الأصنام فدعا أهلها إلى عبادة الأصنام، وكان بها سبعة أحداث يعبدون الله سرّاً، فرجع خبرهم إلى الملك وخافوه فهربوا ليلاً، ومروا براع معه كلب فتبعهم فأرّوا إلى الكهف فتبعهم الملك إلى فم الغار، فوجد أثر دخولهم ولم يجد أثر خروجهم، فدخلوا فاعمى الله أبصارهم فلم يروا شيئاً؛ فقال الملك: سدّوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشاً. وروى مجاهد عن ابن عباس أيضاً أن هؤلاء الفتية كانوا في دين ملك يعبد الأصنام ويذبح لها ويكفر بالله، وقد تابعه على ذلك أهل المدينة، فوقع للفتية علم من بعض الحواريين حسبما ذكر النقاش أو من مؤمني الأمم قبلهم فأمنوا بالله ورأوا ببصائرهم قبيح فعل الناس، فأخذوا نفوسهم بالتزام الدين وعبادة الله؛ فرجع أمرهم إلى الملك وقيل له: إنهم قد فارقوا دينك واستخفوا آلهتك وكفروا بها، فاستحضرهم الملك إلى مجلسه وأمرهم باتساع دينه والذبح لآلهته، وتوعدّهم على فراق ذلك بالقتل؛ فقالوا له فيما روي: «رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» إلى قوله: «وَإِذِ اعْتَرَضْتُمُوهُمْ». وروي أنهم قالوا نحو هذا الكلام وليس به، فقال لهم الملك: إنكم شبان أغمار لا عقول لكم، وأنا لا أعجل بكم بل أستأني فآذنبوا إلى منازلكم ودبروا رأيكم وارجعوا إلى أمري، وضرب لهم في ذلك أجلاً، ثم إنه سافر خلال الأجل فتشاور الفتية في الهروب بأديانهم، فقال لهم أحدهم: إنني أعرف كهفاً في جبل كذا، كان أبي يدخل فيه غنمه فلنذهب فلنختف فيه حتى يفتح الله لنا؛ فخرجوا فيما روي يلعبون بالصولجان والكرة، وهم يدرجونها إلى نحو طريقهم لثلاً يشعر الناس بهم. وروي أنهم كانوا مثقفين فحضر عيد خرجوا إليه فركبوا في جملة الناس، ثم أخذوا باللعب بالصولجان<sup>(١)</sup> حتى خلصوا بذلك. وروى وهب بن منبه أن أول أمرهم إنما كان حوارياً لعيسى بن مريم جاء إلى مدينة أصحاب الكهف يريد دخولها، فأجر نفسه من صاحب الحمام وكان يعمل فيه، فرأى صاحب الحمام في أعماله بركة عظيمة، فألقى إليه بكل أمره، وعرف ذلك الرجل فتيان من أهل المدينة فعرفهم الله تعالى فأمنوا به واتبعوه على دينه، واشتهرت خلطتهم به؛ فأتى يوماً إلى ذلك الحمام ولد الملك بامرأة أراد الخلوة بها، فنهاه ذلك الحواري فاتتهى، ثم جاء مرة أخرى فنهاه فشتمه، وأمضى عزمه في دخول الحمام مع البغي، فدخل فماتا فيه جميعاً، فاتهم ذلك الحواري وأصحابه بقتلهما، ففروا جميعاً حتى دخلوا الكهف. وقيل في خروجهم غير هذا<sup>(٢)</sup>.

وأما الكلب فروي أنه كان كلباً صيد لهم، وروي أنهم وجدوا في طريقهم راعياً له كلب فاتبعهم الراعي على رأيهم وذهب الكلب معهم؛ قاله ابن عباس. واسم الكلب حمران وقيل قطمير. وأما أسماء أهل الكهف فأعجمية، والسند في معرفتها واه. والذي ذكره الطبري هي هذه: مكسلمينا وهو أكبرهم والمتكلم عنهم، ومحسيميلينا ويمليخا، وهو الذي مضى بالورق إلى المدينة عند

(١) الصولجان: عصاً معوجة (أو معوج طرفها) يضرب الفارس بها فرسه.

(٢) هذه الرواية وما بعدها من تحديد الأسماء ذكرها الطبري (٢٠٢/١٥) وما بعدها عن ابن إسحاق، ومجاهد، وعبد الله بن عبيد بن عمير ووهب بن منبه، وهي كلها روايات لا يعرف لها سند يمكن الاحتجاج به، ولا مصدر يعرف به صحتها إلا كتب السابقين، وقد سكت الحق تبارك وتعالى عنها فيجب السكوت أيضاً عنها، لا البحث حتى عن اسم الكلب !!!

بعثهم من رقدتهم، ومرطوس وكشوطوش ودينموس ويطونس وبيرونس. قال مقاتل: وكان الكلب لمكسليينا، وكان أسنهم وصاحب غنم.

الثانية: هذه الآية صريحة في الفرار بالدين وهجرة الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة. وقد خرج النبي ﷺ فاراً بدينه، وكذلك أصحابه، وجلس في الغار حسبما تقدم في سورة «النحل». وقد نص الله تعالى على ذلك في «براءة» وقد تقدم. وهجروا أوطانهم وتركوا أرضهم وديارهم وأهاليهم وأولادهم وقراباتهم وإخوانهم، رجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين. فسكنى الجبال ودخول الغيران، والعزلة عن الخلق والانفراد بالخالق، وجواز الفرار من الظالم هي سنة الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء. وقد فضل رسول الله ﷺ العزلة<sup>(١)</sup>، وفضلها جماعة العلماء لا سيما عند ظهور الفتن وفساد الناس، وقد نص الله تعالى عليها في كتابه فقال: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٥].

قال العلماء: الاعتزال عن الناس يكون مرة في الجبال والشعاب، ومرة في السواحل والرباط، ومرة في البيوت؛ وقد جاء في الخبر: «إذا كانت الفتنة فأخف مكانك وكف لسانك»<sup>(٢)</sup>. ولم يخص موضعاً من موضع. وقد جعلت طائفة من العلماء العزلة اعتزال الشر وأهله بقلبك وعملك، إن كنت بين أظهرهم. وقال ابن المبارك في تفسير العزلة: أن تكون مع القوم فإذا خاضوا في ذكر الله فحضر معهم، وإن خاضوا في غير ذلك فاسكت. وروى البغوي عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»<sup>(٣)</sup>. وروى عن النبي ﷺ قال: «نعم صوامع المؤمنين بيوتهم»<sup>(٤)</sup> من مراسيل الحسن وغيره. وقال عقبه بن عامر لرسول الله ﷺ: ما النجاة يا رسول الله؟ فقال: «يا عقبه أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك»<sup>(٥)</sup>. وقال ﷺ: «يأتي على الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»<sup>(٦)</sup>. وذكر علي بن سعد عن الحسن بن

(١) وهذا وقت الفتنة بشروطها وفي حديث البخاري (٢٧٨٦) ومسلم (١٨٨٨) بالسند إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال عليه السلام لما سئل: أي الناس أفضل؟ فذكر الجهاد، ثم ذكر: «... مؤمن في شعب من الشعاب يعبد الله ربه، ويدع الناس من شره».

(٢) صحيح بنحوه: ولفظه «الزم بيتك واملك عليك لسانك» صححه الألباني (٤٣٤٣) في الملاحم من سنن أبي داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) صحيح: الترمذي (٢٥٠٧) عن رجل من أصحاب رسول الله، وجهالة الصحابي لا تضر، وبه صححه الألباني - رحمه الله - في موضعه من سنن الترمذي، وقد جاء الحديث عند أحمد وابن ماجه، والبخاري في الأدب عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) ضعيف: للارسال، وانظر مسند الشهاب (١٣٢٢) للقضاعي عن أبي أسامة رضي الله عنه. قلت: وأحسن أحواله أن يكون موقوفاً على أبي الدرداء بلفظ «نعم صومعة الرجل بيته». وقد ذكر العجلوني (٤٢٨/٢) عدة شواهد له، وذكره على الحسن مقطوعاً وهزاه للعسكري في الأمثال بلفظ «البيوت صوامع المؤمنين».

(٥) صحيح: الترمذي (٢٤٠٦) في الزهد وصححه الألباني هناك.

(٦) صحيح: وقد سبق في الصحيحين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

واقده قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كانت سنة ثمانين ومائة فقد حلت لأمتي العزبة والعزلة والترهب في رؤوس الجبال» (١). وذكر أيضاً علي بن مسعد عن عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «يأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من فرّ بدينه من شاهق إلى شاهق أو حجر إلى حجر فإذا كان ذلك لم تمل المعيشة إلا بمعصية الله فإذا كان ذلك حلت العزبة». قالوا: يا رسول الله، كيف تحلّ العزبة وأنت تأمرنا بالتزويج؟ قال: «إذا كان ذلك كان فساد الرجل على يدي أبويه فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدي زوجته فإن لم تكن له زوجة كان هلاكه على يدي ولده فإن لم يكن له ولد كان هلاكه على يدي القرابات والجيران». قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «يعيرونه بضيق المعيشة ويكلفونه ما لا يطيق فعند ذلك يورد نفسه الموارد التي يهلك فيها» (٢).

قلت: أحوال الناس في هذا الباب تختلف، فربّ رجل تكون له قوّة على سكنى الكهوف والغيران في الجبال، وهي أرفع الأحوال لأنها الحالة التي اختارها الله لنبيه ﷺ في بداية أمره، ونص عليها في كتابه مخبراً عن الفتية، فقال: «وَإِذْ اعْتزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْا إِلَى الْكَهْفِ». وربّ رجل تكون العزلة له في بيته أخف عليه وأسهل؛ وقد اعتزل رجال من أهل بدر فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم. وربّ رجل متوسط بينهما فيكون له من القوّة ما يصبر بها على مخالطة الناس وأذاهم، فهو معهم في الظاهر ومخالف لهم في الباطن. وذكر ابن المبارك حدثنا وهيب بن الورد قال: جاء رجل إلى وهب بن منبه فقال: إن الناس وقعوا فيما فيه وقعوا وقد حدثت نفسي ألا أخالطهم. فقال: لا تفعل إنه لا بدّ لك من الناس، ولا بدّ لهم منك، ولك إليهم حوائج، ولهم إليك حوائج، ولكن كن فيهم أصمّ سميماً، أعمى بصيراً، سكوتاً نظوفاً (٣). وقد قيل: إن كل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في معنى الجبال والشعاب؛ مثل الاعتكاف في المساجد، ولزوم السواحل للرباط والذكر، ولزوم البيوت فراراً عن شرور الناس. وإنما جاءت الأحاديث بذكر الشعاب والجبال واتباع الغنم والله أعلم لأن ذلك هو الأغلب في المواضع التي يعتزل فيها؛ فكل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في معناه؛ كما ذكرنا، والله الموفق وبه العصمة. وروى عقبه بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يعجب ربك من راعي غنم في رأس شظية» (٤) الجبل يؤذّن بالصلاة ويصلي فيقول الله عز وجل انظروا إلى عبدي يؤذّن ويقيم الصلاة يخاف مني قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة» (٥). خرجه النسائي.

الثالثة: قوله تعالى: «وَهَيَّ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا» لما فرّوا عن يطلبهم اشتغلوا بالدعاء ولجأوا إلى الله

(١) موضوع: أورده ابن الجوزي في الموضوعات كما في الكنز (٣٠٩٧٠) من رواية ابن مسعود بلفظ قريب.

(٢) ضعيف: أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد، والخطابي (١٠) في الزهد وانظر كنز العمال (١٥٤/١١).

(٣) صحيح إلى وهيب: الزهد (٣٣٩/١) لابن المبارك - رحمه الله - والعزلة (ص ٩٨) للخطابي ومدارة الناس (ص ٤٢) لابن أبي الدنيا.

(٤) شظية: بفتح الشين وكسر الظاء: قطعة مرتفعة من الجبل - كما في اللسان -.

(٥) صحيح: أبو داود (١٢٠٣) في الصلاة، النسائي (٢٠/٢) في الأذان وصححه الألباني - رحمه الله -.

تعالى فقالوا: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي مغفرة ورزقاً. ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ توفيقاً للرشاد. وقال ابن عباس: مخرجاً من الغار في سلامة وقيل صواباً. ومن هذا المعنى أنه عليه السلام كان إذا حَزَبَهُ أمر فَرَعَ إلى الصلاة (١).

### ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾

عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم. وهذه من فصيحات القرآن التي أقرت العرب بالقصور عن الإتيان بمثله. قال الزجاج: أي منعناهم عن أن يسمعوا؛ لأن النائم إذا سمع انتبه. وقال ابن عباس: ضربنا على آذانهم بالنوم؛ أي سدنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها. وقيل: المعنى ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ أي فاستجبنا دعاءهم، وصرفنا عنهم شرّ قومهم، وأمنناهم. والمعنى كلّه متقارب. وقال قطرب: هذا كقول العرب ضرب الأمير على يد الرعية إذا منعهم الفساد، وضرب السيد على يد عبده المأذون له في التجارة إذا منعه من التصرف. قال الأسود بن يعفر وكان ضربياً:

ومن الحوادث لا أبا لك أنني ضُربتُ عليّ الأرضُ الأسداد

وأما تخصيص الأذان بالذكر فلأنها الجارحة التي منها عظم فساد النوم، وقلّما يقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه، ولا يستحكم نوم إلا من تعطلّ السمع. ومن ذكر الأذن في النوم قوله ﷺ: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنه» (٢) خرّجه الصحيح. أشار عليه السلام إلى رجل طويل النوم، لا يقوم الليل. و﴿عَدَدًا﴾ نعت للسنين؛ أي معدودة، والقصد به العبارة عن التكثير؛ لأن القليل لا يحتاج إلى عدد لأنه قد عُرف. والعدّ المصدر، والعدد اسم المعدود كالنفض والحَبَط. وقال أبو عبيدة: ﴿عَدَدًا﴾ نصب على المصدر. ثم قال قوم: بين الله تعالى عدد تلك السنين من بعدُ فقال: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥].

### ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا وَإِذْ قَالَ الْأَخْيَارُ لِلَّهِ تُبَّارًا﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا﴾ أي من بعد نومهم. ويقال لمن أُخِيبَ أو أُقِيمَ من نومه مبعوث؛ لأنه كان ممنوعاً من الانبعاث والتصرف.

قوله تعالى: ﴿لَنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ ﴿لَنَعْلَمَ﴾ عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود ومشاهدته؛ وهذا على نحو كلام العرب، أي لنعلم ذلك موجوداً، وإلا فقد كان الله تعالى علم أيّ الحزبين أحصى الأمد. وقرأ الزُّهري «ليعلم» بالياء. والحزبان الفريقان. والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنوا لبثهم قليلاً. والحزب الثاني أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية. وهذا قول الجمهور من المفسرين. وقالت فرقة: هما حزبان من الكافرين، اختلفا في مدة أصحاب الكهف. وقيل: هما حزبان من المؤمنين. وقيل غير

(١) صحيح: وقد سبق عن حذيفة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: البخاري (١١٤٤) في التهجد، مسلم (٧٧٤) في صلاة المسافرين وقصرها عن ابن مسعود رضي الله عنه.

ذلك مما لا يرتبط بالفاظ الآية. و﴿أَحْصَى﴾ فعل ماضٍ. و﴿أَمْدًا﴾ نصب على المفعول به؛ قاله أبو علي. وقال الفراء: نصب على التمييز. وقال الزجاج: نصب على الظرف، أي أيّ الحزبين أحصى للبهيم في الأمد، والأمد الغاية. وقال مجاهد: «أمدًا» معناه عددا، وهذا تفسير بالمعنى على جهة التقريب. وقال الطبري: ﴿أَمْدًا﴾ منصوب بـ﴿لَبُّوا﴾. ابن عطية: وهذا غير متجه، وأما من قال إنه نصب على التفسير فيلحقه من الاختلال أن أفعل لا يكون من فعل رباعي إلا في الشاذ، و﴿أَحْصَى﴾ فعل رباعي. وقد يحتج له بأن يقال: إن أفعل في الرباعي قد كثُر؛ كقولك: ما أعطاه للمال وآتاه للخير. وقال في صفة حوضه ﷺ: «ماؤه أبيض من اللبن». وقال عمر بن الخطاب: فهو لما سواها أضيّع.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرِذْنَهُمْ هُدَىٰ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ لما اقتضى قوله تعالى: ﴿لَتَعْلَمَنَّ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ﴾ اختلافاً وقع في أمد الفتية، عقب بالخبر عن أنه عز وجل يعلم من أمرهم بالحق الذي وقع. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ أي شباب وأحداث حكم لهم بالفتوة حين آمنوا بلا واسطة؛ كذلك قال أهل اللسان: رأس الفتوة الإيمان. وقال الجنيد: الفتوة بذل الندى وكف الأذى وترك الشكوى. وقيل: الفتوة اجتناب المحارم واستعمال المكارم. وقيل غير هذا. وهذا القول حسن جداً؛ لأنه يعم بالمعنى جميع ما قيل في الفتوة.

قوله تعالى: ﴿وَرِذْنَهُمْ هُدَىٰ﴾ أي يسرناهم للعمل الصالح؛ من الانقطاع إلى الله تعالى، ومباعدة الناس، والزهد في الدنيا. وهذه زيادة على الإيمان. وقال السدي: زادهم هدى بكلب الراعي حين طردوه ورجموه مخافة أن ينيح عليهم وينبئ بهم؛ فرفع الكلب يديه إلى السماء كالداعي فأنطقه الله، فقال: يا قوم لم تطردوني، لم ترجموني لم تضربوني فوالله لقد عرفت الله قبل أن تعرفوه بأربعين سنة؛ فزادهم الله بذلك هدى.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوهُ مِن دُونِهِ إِلَهًا ۚ لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ۝١٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عبارة عن شدة عزم وقوة صبر، أعطاه الله لهم حتى قالوا بين يدي الكفار: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوهُ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾. ولما كان الفزع وخور النفس يشبه بالتناسب الانحلال حسن في شدة النفس وقوة التصميم أن يشبه الربط؛ ومنه يقال: فلان رابط الجأش، إذا كان لا تفرق نفسه عند الفزع والحرب وغيرها. ومنه الربط على قلب أم موسى. وقوله تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١] وتقدم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾ يحتمل ثلاثة معان:

أحدها: أن يكون هذا وصف مقامهم بين يدي الملك الكافر كما تقدم، وهو مقام يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه، ورفضوا في ذات الله هيئته.

والمعنى الثاني فيما قيل: إنهم أولاد عظماء تلك المدينة، فخرجوا واجتمعوا وراء تلك المدينة من غير ميعاد؛ فقال أسنهم: إني أجد في نفسي أن ربي رب السموات والأرض؛ فقالوا ونحن كذلك نجد في أنفسنا. فقاموا جميعاً فقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾. أي لئن دعونا إلهاً غيره فقد قلنا إذا جوراً ومحالاً.

والمعنى الثالث: أن يعبر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله تعالى ومناذرة الناس؛ كما تقول: قام فلان إلى أمر كذا إذا عزم عليه بغاية الجِدِّ.

الثانية: قال ابن عطية: تعلقت الصوفية في القيام والقول بقوله: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

قلت: وهذا تعلق غير صحيح هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته، وشكروا لما أولاهم من نعمه ونعمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم؛ وهذه سنة الله في الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء. أين هذا من ضرب الأرض بالآقدام والرقص بالأكمام وخاصة في هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنسوان؛ هيهات بينهما والله ما بين الأرض والسماء. ثم هذا حرام عند جماعة العلماء، على ما يأتي بيانه في سورة لقمان إن شاء الله تعالى. وقد تقدم في «سبحان» عند قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا﴾ [الإسراء: ٣٧] ما فيه كفاية. وقال الإمام أبو بكر الطرسوسي وسئل عن مذهب الصوفية فقال: وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري؛ لما اتخذ لهم عبلاً جسداً له حوار قاموا يرقصون حوالبه ويتواجدون؛ فهو دين الكفار وعباد العجل<sup>(١)</sup>، على ما يأتي.

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ أي قال بعضهم لبعض: هؤلاء قومنا، أي أهل عصرنا وبلدنا، عبدوا الأصنام تقليداً من غير حجة. ﴿لَوْلَا﴾ أي هَلَا. ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أن بحجة على عبادتهم الصنم. وقيل: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ راجع إلى الآلهة؛ أي هلا أقاموا بيئته على الأصنام في كونها آلهة؛ فقولهم ﴿لَوْلَا﴾ تحضيض بمعنى التعجيز، وإذا لم يمكنهم ذلك لم يجب أن يلتفت إلى دعواهم.

﴿وَإِذْ اعْتزَلْتُمُوهُرَ وَمَا يَعْبدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْبَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ۝﴾

(١) وسيأتي في سورة طه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتزَلْتُمُوهُمْ﴾ قيل: هو من قول الله لهم. أي وإذا اعتزلتموهم فأووا إلى الكهف. وقيل: هو من قول رئيسهم يملحاً؛ فيما ذكر ابن عطية. وقال الغزنوي: رئيسهم مكسلمينا، قال لهم ذلك؛ أي إذا اعتزلتموهم واعتزلتم ما يعبدون. ثم استثنى وقال ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ أي إنكم لم تتركوا عبادته؛ فهو استثناء منقطع. قال ابن عطية: وهذا على تقدير إن الذين فرّ أهل الكهف منهم لا يعرفون الله، ولا علم لهم به، وإنما يعتقدون الأصنام في ألوهيتهم فقط. وإن فرضنا أنهم يعرفون الله كما كانت العرب تفعل لكنهم يشركون أصنامهم معه في العبادة فالاستثناء متصل؛ لأن الاعتزال وقع في كل ما يعبد الكفار إلا في جهة الله. وفي مصحف عبد الله بن مسعود «وما يعبدون من دون الله». قال قتادة هذا تفسيرها.

قلت: ويدل على هذا ما ذكره أبو نعيم الحافظ عن عطاء الخراساني في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ قال: كان فتيّة من قوم يعبدون الله ويعبدون معه آلهة فاعتزلت الفتيّة عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله.

ابن عطية: فعلى ما قال قتادة تكون ﴿إِلَّا﴾ بمنزلة غير، و ﴿مَا﴾ من قوله ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ في موضع نصب، عطفاً على الضمير في قوله ﴿اعْتزَلْتُمُوهُمْ﴾. ومضمّن هذه الآية أن بعضهم قال لبعض: إذا فارقتنا الكفار وانفردنا بالله تعالى فلنجعل الكهف مأوىً وتكفل على الله؛ فإنه سيبسط لنا رحمته، وينشرها علينا، ويهيئ لنا من أمرنا مرفقاً. وهذا كله دعاء بحسب الدنيا، وعلى ثقة كانوا من الله في أمر آخرتهم. وقال أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه: كان أصحاب الكهف صياقلة، واسم الكهف حيوم<sup>(١)</sup>. ﴿مَرْفَقًا﴾ قرئ بكسر الميم وفتحها، وهو ما يرتفق به. وكذلك مرفق الإنسان ومرفقه؛ ومنهم من يجعل «المرفق» بفتح الميم وكسر الفاء من الأمر، والمرفق من الإنسان، وقد قيل: المرفق بفتح الميم الموضع كالمسجد، وهما لغتان.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُهَا ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آيَاقًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنَقَلْنَاهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلَمْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي ترى أيها المخاطب الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم. والمعنى: إنك لو رأيتهم لرأيتهم كذا؛ لا أن المخاطب رآهم على التحقيق. و ﴿تَزَاوَرُ﴾ تتنحى وتميل؛ من الأزورار. والزور الميل. والأزور في العين المائل النظر إلى ناحية، ويستعمل في غير العين؛ كما قال ابن أبي ربيعة:

وجنبي خيفة القوم أزورُّ

(١) ومثل هذا لا يصح من قريب أو من بعيد، والله أعلم.

ومن اللفظة قول عنترة:

فازورّ من وقع القنّا بلبّانه

وفي حديث غزوة مؤتة أن رسول الله ﷺ رأى في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سرير جعفر وزيد بن حارثة (١). وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو «تزاور» بإدغام التاء في الزاي، والأصل «تزاور»، وقرأ عاصم وحزمة والكسائي «تزاور» مخففة الزاي. وقرأ ابن عامر «تزور» مثل تحمر. وحكى الفراء «تزاور» مثل تحمار؛ كلها بمعنى واحد. «وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ» قرأ الجمهور بالتاء على معنى تركهم؛ قاله مجاهد. وقال قتادة: تدعهم. النحاس: وهذا معروف في اللغة، حكى البصريون أنه يقال: قرضه يقرضه إذا تركه؛ والمعنى: أنهم كانوا لا تصيبهم شمس ألبسة كرامة لهم؛ وهو قول ابن عباس. يعني أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين، أي يمين الكهف، وإذا غربت تمرّ بهم ذات الشمال، أي شمال الكهف، فلا تصيبهم في ابتداء النهار ولا في آخر النهار. وكان كهفهم مستقبل بنات نعش في أرض الروم، فكانت الشمس تميل عنهم طالعةً وغاربةً وجارية لا تبلغهم لتؤذيهم بحرّها، وتغيّر ألوانهم وتبلي ثيابهم. وقد قيل: إنه كان لكهفهم حاجب من جهة الجنوب، وحاجب من جهة الدبور وهم في زاويته. وذهب الزجاج إلى أن فعل الشمس كان آية من الله، دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك. وقرأت فرقة «يقرضهم» بالياء من القرض وهو القطع، أي يقطعهم الكهف بظله من ضوء الشمس. وقيل: «وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ» أي يصيبهم يسير منها، مأخوذ من قرأضة الذهب والفضة، أي تعطيبهم الشمس اليسير من شعاعها. وقالوا: كان في مسّها لهم بالعشيّ إصلاح لأجسادهم. وعلى الجملة فالآية في ذلك أن الله تعالى أوامهم إلى كهف هذه صفته لا إلى كهف آخر يتأذون فيه بانسباط الشمس عليهم في معظم النهار. وعلى هذا فيمكن أن يكون صرف الشمس عنهم بإظلال غمام أو سبب آخر. والمقصود بيان حفظهم عن تطرق البلاء وتغيّر الأبدان والألوان إليهم، والتأذي بحر أو برد. «وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ» أي من الكهف. والفجوة المتسع، وجمعها فجوات وفجاء؛ مثل ركوة وركاء وركوات. وقال الشاعر:

ونحن ملأنا كلّ واد وفجوة رجالاً وخیلاً غير ميل ولا عزّل

أي كانوا بحيث يصيبهم نسيم الهواء. «ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ» لطف بهم، وهذا يقوي قول الزجاج. وقال أهل التفسير: كانت أعينهم مفتوحة وهم نائمون؛ فكذلك كان الرائي يحسبهم أيقاظاً. وقيل: تحسبهم أيقاظاً لكثرة تقلّبهم كالمستيقظ في مضجعه. و «أَيْقَاطًا» جمع يقظ ويقظان، وهو المنتبه. «وَهُمْ رُقُودٌ» كقولهم: وهم قوم ركوع وسجود وعود؛ فوصف الجمع بالصدر. «وَنُقَلِبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ» قال ابن عباس: لثلاث تآكل الأرض لحومهم. قال أبو هريرة: كان لهم في كل عام تقلبتان. وقيل: في كل سنة مرة. وقال مجاهد: في كل سبع سنين مرة. وقالت فرقة: إنما قلبوا في التسع الأواخر، وأما في الثلثمئة فلا. وظاهر كلام المفسرين أن التقلب كان من فعل الله، ويجوز أن يكون من ملك بأمر الله، فيضاف إلى الله تعالى.

(١) ضعيف للإرسال: السيرة الحلبية (٣/٩٩) وذكره عن قتادة به، وقاتده لم يدرك زمن النبوة لأنه تابعي.

قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾.

فيه أربع مسائل:

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ﴾ قال عمرو بن دينار: إن مما أخذ على العقرب ألا تضر أحداً قال في ليله أو في نهاره: صلى الله على نوح. وإن مما أخذ على الكلب ألا يضر من حمل عليه إذا قال: وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد.

أكثر المفسرين على أنه كلب حقيقة، وكان لصيد أحدهم أو لزرعه أو غنمه؛ على ما قال مقاتل. واختلف في لونه اختلافاً كثيراً، ذكره الثعلبي. تحصيله: أي لون ذكرت أصبت؛ حتى قيل لون الحجر وقيل لون السماء. واختلف أيضاً في اسمه؛ فعن علي: ريان. ابن عباس: قطمير. الأوزاعي: مشير. عبد الله بن سلام: بسيط. كعب: صهيا. وهب: نقياً. وقيل: قطفير؛ ذكره الثعلبي. وكان اقتناء الكلب جائزاً في وقتهم، كما هو عندنا اليوم جائز في شرعنا. وقال ابن عباس: هربوا ليلاً، وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب فاتبعهم على دينهم. وقال كعب: مروا بكلب فنبح لهم فطردوه فعاد فطردوه مراراً، فقام الكلب على رجليه ورفع يديه إلى السماء كهيئة الداعي، فطلق فقال: لا تخافوا مني أنا أحب أحبآء الله تعالى فناموا حتى أحرسكم<sup>(١)</sup>.

**الثانية:** ورد في الصحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «من اقتنى كلباً إلا كلب صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان»<sup>(٢)</sup>. وروي في الصحيح أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتخذ كلباً إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع انتقص من أجره كل يوم قيراط»<sup>(٣)</sup>. قال الزهري: وذكر لابن عمر قول أبي هريرة فقال: يرحم الله أبا هريرة كان صاحب زرع. فقد دلت السنة الثابتة على اقتناء الكلب للصيد والزرع والماشية. وجعل النقص في أجر من اقتناها على غير ذلك من المنفعة؛ إما لترويع الكلب المسلمين وتشويشه عليهم بنباحه، أو لمنع دخول الملائكة البيت، أو لنجاسته، على ما يراه الشافعي، أو لاقتنحام النهي عن اتخاذ ما لا منفعة فيه؛ والله أعلم. وقال في إحدى الروايتين «قيراطان» وفي الأخرى «قيراط». وذلك يحتمل أن يكون في نوعين من الكلاب أحدهما أشد أذى من الآخر، كالأسود الذي أمر عليه السلام بقتله، ولم يدخله في الاستثناء حين نهى عن قتلها كما هو منصوص في حديث جابر، أخرجه الصحيح. وقال: «عليكم بالأسود البهيم ذي النقطتين فإنه شيطان»<sup>(٤)</sup>. ويحتمل أن يكون ذلك لاختلاف المواضع، فيكون ممسكه بالمدينة مثلاً أو بمكة ينقص قيراطان وبغيرها قيراط. وأما المباح اتخاذها فلا ينقص؛ كالفرس والهرة. والله أعلم.

(١) وهل مثل هذا يعقل من قريب أو من بعيد؟ إنهم صالحون لا أنبياء ولا دليل على ذلك، وهو غير محال في قدرة الله تعالى، ولكن لا دليل عليه.

(٢) صحيح: وقد سبق.

(٣) صحيح: البخاري (٢٣٢٢)، في الحرث والمزراعة، مسلم (١٥٧٥) في المساقاة.

(٤) صحيح: مسلم (١٥٧٢) في المساقاة.

وذو النقطتين: الكائنتان فوق العين.

الثالثة: وكلب الماشية المباح اتخاذها عند مالك هو الذي يسرح معها، لا الذي يحفظها في الدار من السراق. وكلب الزرع هو الذي يحفظها من الوحوش بالليل أو بالنهار لا من السراق. وقد أجاز غير مالك اتخاذها لسراق الماشية والزرع. وقد تقدم في «المائدة» من أحكام الكلاب ما فيه كفاية، والحمد لله.

الرابعة: قال ابن عطية: وحدثني أبي رضي الله عنه قال: سمعت أبا الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة: إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم؛ كلب أحب أهل فضلٍ وصحبهم فذكره الله في محكم تنزيله.

قلت: إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصالحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جل وعلا فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين بل في هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال، المحبين للنبي ﷺ وآله خير آل. روى الصحيح عن أنس بن مالك قال: بينا أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المسجد فلقينا رجلاً عند سدة المسجد فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: «ما أعددت لها» قال: فكان الرجل استكان، ثم قال: يا رسول الله، ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله. قال: «فأنت مع من أحببت»<sup>(١)</sup>. في رواية قال أنس بن مالك: فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشد من قول النبي ﷺ: «فأنت مع من أحببت». قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم<sup>(٢)</sup>.

قلت: وهذا الذي تمسك به أنس يشمل من المسلمين كل ذي نفس، فكذلك تعلقت أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين، ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين، كلب أحب قوماً فذكره الله معهم فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام، وحب النبي ﷺ، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقالت فرقة<sup>(٣)</sup>: لم يكن كلباً حقيقة، وإنما كان أحدهم، وكان قد قعد عند باب الغار طليعة لهم؛... كما سمي النجم التابع للجوزاء كلباً؛ لأنه منها كالكلب من الإنسان؛ ويقال له: كلب الجبار. قال ابن عطية: فسمي باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع أما إن هذا القول يضعفه ذكر بسط الذراعين فإنها في العرف من صفة الكلب حقيقة؛ ومنه قول النبي ﷺ: «ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب»<sup>(٤)</sup>. وقد حكى أبو عمر المطرز في كتاب اليساقيت أنه قرئ «وكالبهم باسط ذراعيه بالصيد». فيحتمل أن يريد بالكالب هذا الرجل على ما روى؛ إذ بسط الذراعين واللصوق بالأرض مع رفع الوجه للتطلع هي هيئة الرية المستخفي بنفسه. ويحتمل أن يريد بالكالب الكلب. وقرأ جعفر

(١) صحيح: البخاري (٣٦٨٨) في فضائل الصحابة، مسلم (٢٦٣٩) في البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: انظر السابق.

(٣) وهذا ردة الحافظ ابن حجر (٥٠٥/٦) في فتح الباري والجبار: هو الجوزاء.

(٤) صحيح: وقد سبق.

قوله تعالى: ﴿بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ أعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المضي؛ لأنها حكاية حال ولم يقصد الإخبار عن فعل الكلب. والذراع من طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى. ثم قيل: بسط ذراعيه لطول المدّة. وقيل: نام الكلب، وكان ذلك من الآيات. وقيل: نام مفتوح العين. والصيد: الفناء؛ قاله ابن عباس ومجاهد وابن جبير، أي فناء الكهف، والجمع وصائد ووصد. وقيل: الباب. وقاله ابن عباس أيضاً. وأنشد:

بأرض فضاء لا يسدّ وصيدُها عليّ ومعروفي بها غير منكر

وقد تقدّم. وقال عطاء: عتبة الباب، والباب الموصد هو المعلق. وقد أوصدت الباب وأصدته أي أغلقتها. والوصيد: النبات المتقارب الأصول، فهو مشترك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ قرأ الجمهور بكسر الواو. والأعمش ويحيى بن وثاب بضمها. ﴿لَوْلَيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ أي لو أشرفت عليهم لهربت منهم. ﴿وَلَمَلَيْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ أي لما حفهم الله تعالى من الرعب واكتنفهم من الهيبة. وقيل: لوحشة مكانهم؛ وكانهم آواهم الله إلى هذا المكان الوحش في الظاهر لينفر الناس عنهم. وقيل: كان الناس محجوبين عنهم بالرعب، لا يجسر أحد منهم على الدنو إليهم. وقيل: الفرار منهم لطول شعورهم وأظفارهم؛ وذكره المهدي والنحاس والزجاج والقشيري. وهذا بعيد؛ لأنهم لما استيقظوا قال بعضهم لبعض: لبئنا يوماً أو بعض يوم. ودل هذا على أن شعورهم وأظفارهم كانت بحالها؛ إلا أن يقال: إنما قالوا ذلك قبل أن ينظروا إلى أظفارهم وشعورهم. قال ابن عطية: والصحيح في أمرهم أن الله عز وجل حفظ لهم الحالة التي ناموا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيهم آية، فلم يبيل لهم ثوب ولم تغير صفة، ولم ينكر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهم. وقرأ نافع وابن كثير وابن عباس وأهل مكة والمدينة «لَمَلَيْتَ مِنْهُمْ» بتشديد اللام على تضعيف المبالغة؛ أي ملئت ثم ملئت. وقرأ الباقون «الملئت» بالتخفيف، والتخفيف أشهر في اللغة. وقد جاء التثنية في قول المخبل السعدي:

وَإِذْ فَتَكَ التُّعْمَانُ بِالنَّاسِ مُحْرِمًا فَمَلَّئِي مِنْ كَعْبِ بْنِ عَوْفٍ سِلَاسِلَهُ

وقرأ الجمهور «رُعباً» بإسكان العين. وقرأ بضمها أبو جعفر. قال أبو حاتم: هما لغتان. و«فِرَارًا» نصب على الحال و«رُعباً» مفعول ثان أو تمييز.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْتُئُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِكَةِ هَدِيَّةٍ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلَيْنَظُرُوا أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٥﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ البعث: التحريك عن سكون. والمعنى: كما ضربنا على آذانهم وزدناهم هدى وقلبناهم بعثناهم أيضاً؛ أي أيقظناهم من نومهم على ما كانوا عليه من هيئاتهم في ثيابهم وأحوالهم. قال الشاعر:

وَفَتَيَانَ صَدَقَ قَدْ بَعَثَتْ بِسُحْرَةٍ فَقَامُوا جَمِيعاً بَيْنَ عَاثٍ وَنَشْوَانَ  
 أَي أَبْقِظَتْ. وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ ﴿لَيْتَسَاءَلُوا﴾ لَامُ الصَّيْرُورَةِ وَهِيَ لَامُ الْعَاقِبَةِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿لَيْكُونَ لَهُمْ  
 عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فَبِعَثُّهُمْ لَمْ يَكُنْ لِأَجْلِ تَسَاؤُلِهِمْ.  
 قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا لَبِئْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ دَخَلُوهُ غُدُوَّةً وَيَعِشُهُمُ اللَّهُ فِي آخِرِ النَّهَارِ؛  
 فَقَالَ رَئِيسُهُمْ تَمْلِيخًا أَوْ مَكْسَلِمِينَ: اللَّهُ أَعْلَمُ بِالْمُدَّةِ.  
 قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَابْتَغُوا أَحَدَكُمْ بَرِّقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ فِيهِ سَبْعُ مَسَائِلَ:

**الأولى:** قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَتْ رَرَقَهُمْ كَأَخْفَافِ الرَّبِيعِ؛ ذَكَرَهُ النَّحَّاسُ. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَنَافِعٌ وَابْنُ  
 عَامِرٍ وَالْكَسَائِيُّ وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ «بَرِّقِكُمْ» بِكَسْرِ الرَّاءِ. وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَحَمْزَةُ وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ  
 عَاصِمٍ «بَرِّقِكُمْ» بِسُكُونِ الرَّاءِ، حَذَفُوا الْكِسْرَةَ لِثِقَلِهَا، وَهَمَا لَفْتَانٌ. وَقَرَأَ الزُّجَاجُ «بَرِّقِكُمْ» بِكَسْرِ  
 الْوَاوِ وَسُكُونِ الرَّاءِ. وَيُرْوَى أَنَّهُمْ اتَّبَعُوا جِيَاعاً، وَأَنَّ الْمَبْعُوثَ هُوَ تَمْلِيخًا، كَانَ أَصْغَرَهُمْ؛ فِيمَا ذَكَرَ  
 الْفَرَزَنْدِيُّ. وَالْمَدِينَةُ: أَفْسُوسٌ وَيُقَالُ هِيَ طَرْسُوسٌ، وَكَانَ اسْمُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَفْسُوسٌ؛ فَلَمَّا جَاءَ  
 الْإِسْلَامَ سَمَّيَاهَا طَرْسُوسًا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ مَعَهُمْ دِرَاهِمٌ عَلَيْهَا صُورَةُ الْمَلِكِ الَّذِي كَانَ فِي  
 زَمَانِهِمْ.

**الثانية:** قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَحْلَى ذَبِيحَةً؛ لِأَنَّ أَهْلَ بَلَدِهِمْ كَانُوا  
 يَذْبَحُونَ عَلَى اسْمِ الصَّنَمِ، وَكَانَ فِيهِمْ قَوْمٌ يَخْفُونَ إِيمَانَهُمْ. ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ عَامَتُهُمْ مَجُوسًا. وَقِيلَ:  
 ﴿أَزْكَى طَعَامًا﴾ أَي أَكْثَرُ بَرَكَةٍ. قِيلَ: إِنَّهُمْ أَمَرُوهُ أَنْ يَشْتَرِيَ مَا يُظَنُّ أَنَّهُ طَعَامٌ اثْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةَ لَثَلَا يُطْلَعُ  
 عَلَيْهِمْ، ثُمَّ إِذَا طَبَخَ كَفَى جَمَاعَةً؛ وَلِهَذَا قِيلَ ذَلِكَ الطَّعَامُ الْأَرْزُ. وَقِيلَ: كَانَ زَبِيبًا. وَقِيلَ تَمْرًا؛ فَاللَّهُ  
 أَعْلَمُ. وَقِيلَ: ﴿أَزْكَى﴾ أَطِيبٌ. وَقِيلَ: أَرْخَصٌ. ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بَرِّقٌ مِنْهُ﴾ أَي بَقُوتٌ. ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أَي فِي  
 دُخُولِ الْمَدِينَةِ وَشِرَاءِ الطَّعَامِ. ﴿وَلَا يَشْعُرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أَي لَا يَخْبِرَنَّ. وَقِيلَ: إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِ فَلَا يَوْقَعَنَّ  
 إِخْوَانَهُ فِيمَا وَقَعَ فِيهِ. ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ قَالَ الزُّجَاجُ: مَعْنَاهُ بِالْحِجَارَةِ، وَهُوَ أَخْبَثُ  
 الْقَتْلِ. وَقِيلَ: يَرْمُوكُمْ بِالسَّبِّ وَالسُّتْمِ؛ وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ، لِأَنَّهُ كَانَ عَازِمًا عَلَى قَتْلِهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ فِي  
 قِصَصِهِمْ. وَالرَّجْمُ فِيمَا سَلَفَ هِيَ كَانَتْ عَلَى مَا ذَكَرَ قَبْلَهُ عَقُوبَةُ مُخَالَفَةِ دِينِ النَّاسِ إِذْ هِيَ أَشْفَى  
 لِحَمَلَةِ أَهْلِ ذَلِكَ الدِّينِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ يَشْتَرِكُونَ فِيهَا.

**الثالثة:** فِي هَذِهِ الْبَعْثَةِ بِالْوَرَقِ دَلِيلٌ عَلَى الْوَكَاةِ وَصَحَّتْهَا. وَقَدْ وَكَّلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَخَاهُ  
 عَقِيلًا عِنْدَ عَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وَلَا خِلَافَ فِيهَا فِي الْجُمْلَةِ. وَالْوَكَاةُ مَعْرُوفَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ؛  
 أَلَا تَرَى إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ كَيْفَ وَكَّلَ أُمِيَّةَ بْنَ خَلْفٍ بِأَهْلِهِ وَحَاشِيَتِهِ بِمَكَّةَ؛ أَي يَحْفَظُهُمْ،  
 وَأُمِيَّةٌ مُشْرِكٌ، وَالتَّزَمَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَأُمِيَّةَ مِنْ حِفْظِ حَاشِيَتِهِ بِالْمَدِينَةِ مِثْلَ ذَلِكَ مَجَازَاةً لِصَنْعِهِ. رَوَى  
 الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ: كَاتَبْتُ أُمِيَّةَ بْنَ خَلْفٍ كِتَابًا بِأَنَّ يَحْفَظُنِي فِي صَاغِيَتِي بِمَكَّةَ  
 وَأَحْفَظُهُ فِي صَاغِيَتِهِ بِالْمَدِينَةِ؛ فَلَمَّا ذَكَرْتُ الرَّحْمَنَ؛ قَالَ: لَا أَعْرِفُ الرَّحْمَنَ كَاتِبِنِي بِاسْمِكَ الَّذِي كَانَ  
 فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَكَاتَبْتَهُ عَبْدُ عَمْرٍو... وَذَكَرَ الْحَدِيثَ (١). قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: صَاغِيَةُ الرَّجُلِ الَّذِينَ يَمِيلُونَ

(١) صحيح: البخاري (٢٣٠١) في الوكالة.

إليه ويأتونه؛ وهو مأخوذ من صفا يصغو ويصغى إذا مال، وكل ماثل إلى الشيء أو معه فقد صفا إليه وأصغى؛ من كتاب الأفعال.

الرابعة: الوكالة عقد نيابة، أذن الله سبحانه فيه للحاجة إليه وقيام المصلحة في ذلك، إذ ليس كل أحد يقدر على تناول أموره إلا بمعونة من غيره أو بترقه فيستتبع من يريعه.

وقد استدل علماءنا على صحتها بآيات من الكتاب، منها هذه الآية. وقوله تعالى: ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: ٦٠] وقوله: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾. وأما من السنة فأحاديث كثيرة؛ منها حديث عروة البارقي، وقد تقدم في آخر الأتعام<sup>(١)</sup>. روى جابر بن عبد الله قال: أردت الخروج إلى خيبر فأتيت رسول الله ﷺ فقلت له: إني أردت الخروج إلى خيبر؛ فقال: «إذا أتيت وكيلي فخذ منه خمسة عشر وسقاً فإن ابتغى منك آيةً فضع يدك على ترقوته»<sup>(٢)</sup> خرجه أبو داود. والأحاديث كثيرة في المعنى، وفي إجماع الأمة على جوازها كفاية.

الخامسة: الوكالة جائزة في كل حق تجوز النيابة فيه، فلو وكل الغاصب لم يجز، وكان هو الوكيل؛ لأن كل محرّم فعله لا تجوز النيابة فيه.

السادسة: في هذه الآية نكتة بديعة، وهي أن الوكالة إنما كانت مع التقيّة خوف أن يشعر بهم أحد لما كانوا عليه من الخوف على أنفسهم. وجواز توكيل ذوي العذر متفق عليه؛ فأما من لا عذر له فالجمهور على جوازها. وقال أبو حنيفة وسحنون: لا تجوز. قال ابن العربي: وكأن سحنون تلقفه من أسد بن الفُرات فحكم به أيام قضائه، ولعله كان يفعل ذلك بأهل الظلم والجبروت؛ إنصافاً منهم وإذلالاً لهم، وهو الحق؛ فإن الوكالة معونة ولا تكون لأهل الباطل.

قلت: هذا حسن؛ فأما أهل الدين والفضل فلهم أن يوكّلوا وإن كانوا حاضرين أصحاء. والدليل على صحة جواز الوكالة للشاهد الصحيح ما خرّجه الصحيحان وغيرهما عن أبي هريرة قال: كان لرجل على النبي ﷺ سنّ من الإبل فجاء يتقاضاه فقال: «أعطوه» فطلبوا له سنّه فلم يجدوا إلا سنّاً فوقها؛ فقال: «أعطوه» فقال: أوفيتني أوفى الله لك. قال النبي ﷺ: «إن خيركم أحسنكم قضاء»<sup>(٣)</sup>. لفظ البخاري. فدل هذا الحديث مع صحته على جواز توكيل الحاضر الصحيح البدن؛ فإن النبي ﷺ أمر أصحابه أن يعطوا عنه السنّ التي كانت عليه؛ وذلك توكيل منه لهم على ذلك، ولم يكن النبي ﷺ مريضاً ولا مسافراً. وهذا يرد قول أبي حنيفة وسحنون في قولهما: إنه لا يجوز توكيل الحاضر الصحيح البدن إلا برضا خصمه؛ وهذا الحديث خلاف قولهما.

السابعة: قال ابن خُوَيْرٍ مندداً: تضمنت هذه الآية جواز الشركة لأن الورق كان لجميعهم. وتضمنت جواز الوكالة لأنهم بعثوا من وكلوه بالشراء. وتضمنت جواز أكل الرفقاء وخلطهم طعامهم

(١) راجع الآية (١٦٤) من سورة الأتعام.

(٢) ضعيف: أبو داود (٣٦٣٢) في السوكالة وترقوته: الترقوة: العظم بين ثغرة النحر والعاتق - كما في النهاية -

(١٨٧/١) لابن الأثر.

(٣) صحيح: البخاري وقد سبق.

معا، وإن كان بعضهم أكثر أكلاً من الآخر؛ ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَخَالَطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢] حسبما تقدم بيانه في «البقرة». ولهذا قال أصحابنا في المسكين يتصدق عليه فيخلطه بطعام لغني ثم يأكل معه: إن ذلك جائز. وقد قالوا في المضارب يخلط طعامه بطعام غيره ثم يأكل معه: إن ذلك جائز. وقد كان رسول الله ﷺ وكلّ من اشترى له أضحية (١). قال ابن العربي: ليس في الآية دليل على ذلك؛ لأنه يحتمل أن يكون كل واحد منهم قد أعطاه منفرداً فلا يكون فيه اشتراك. ولا معول في هذه المسألة إلا على حديثين:

أحدهما: أن ابن عمر مرّ بقوم يأكلون تمرّاً فقال: نهى رسول الله ﷺ عن الاقتران إلا أن يستأذن الرجل أخاه (٢).

الثانية: حديث أبي عبيدة في جيش الخبط (٣). وهذا دون الأول في الظهور؛ لأنه يحتمل أن يكون أبو عبيدة يعطيهم كفافاً من ذلك القوت ولا يجمعهم عليه.

قلت: وما يدل على خلاف هذا من الكتاب قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَخَالَطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]. وقوله ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ [النور: ١٦] على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا أَأَبْنَا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبَّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ﴾ أي أطلعنا عليهم وأظهرناهم. و «أعثر» تعديّة عشر بالهمزة، وأصل العثار في القدم. ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني الأمة المسلمة الذين بعث أهل الكهف على عهدهم. وذلك أن دقيانوس مات ومضت قرون وملك أهل تلك الدار رجلٌ صالح، فاختلف أهل بلده في الحشر وبعث الأجساد من القبور، فشك في ذلك بعض الناس واستبعدوه وقالوا: إنما تحشر الأرواح والجسد تأكله الأرض. وقال بعضهم: تبعث الروح والجسد جميعاً؛ فكبر ذلك على الملك وبقي حيران لا يدري كيف يتبين أمره لهم، حتى لبس المسوح (٤) وقعد على الرماد وتضرع إلى الله تعالى في حجة وبيان، فأعثر الله على أهل الكهف؛ فيقال: إنهم لما بعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة ليأتيهم برزق منها استنكر شخصه واستنكرت دراهمه لبعث العهد، فحمل إلى الملك

(١) صحيح: البخاري (٣٦٤٢) في المناقب عن عروة البارقي رضي الله عنه.

(٢) صحيح: البخاري (٥٤٤٦) في الأطعمة، مسلم (٢٠٤٥) في الأشربة.

والقران هو: أن يجمع الرجل بين التمرتين في الأكل، وإنما نهى عنه لأن فيه شراً وذلك يزري بصاحبه، أو لأن فيه غيباً برفيقه. النهاية (٥٢/٤).

(٣) صحيح: البخاري (٤٣٦١) في المغازي، مسلم (١٩٣٥) في الصيد.

والخطب: ورق الشجر لا نوع السمك.

أما الاسم الثاني لهذه الغزوة فهو العنبر وهي دابة من أنواع الحوت. والحديث عن جابر رضي الله عنه.

(٤) المسوح: لباس الرهبان.

وكان صالحاً قد آمن وآمن من معه، فلما نظر إليه قال: لعل هذا من الفتية الذين خرجوا على عهد دقيانوس الملك، فقد كنت أدعو الله أن يرينهم، وسأل الفتى فأخبره؛ فسّر الملك بذلك قال: لعل الله قد بعث لكم آية، فلنسر إلى الكهف معه، فركب مع أهل المدينة إليهم، فلما دنوا إلى الكهف قال تملخوا: أنا أدخل عليهم لثلاثا يربعوا فدخل عليهم فأعلمهم الأمر وأن الأمة أمة إسلام، فروي أنهم سرّوا بذلك وخرجوا إلى الملك وعظّموه وعظّمهم ثم رجعوا إلى كهفهم. وأكثر الروايات على أنهم ماتوا حين حدثهم تملخوا مئة الحق، على ما يأتي. ورجع من كان شكّ في بعث الأجساد إلى اليقين. فهذا معنى ﴿أَعْرَنَّا عَلَيْهِمْ﴾. ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي ليعلم الملك ورعيته أن القيامة حق والبعث حق ﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرُهُمْ﴾. وإنما استدلوا بذلك الواحد على خبرهم وهابوا الدخول عليهم فقال الملك: ابنوا عليهم بنياناً؛ فقال الذين هم على دين الفتية: اتخذوا عليهم مسجداً. وروي أن طائفة كافرة قالت: نبي بيعة أو مضيفاً، فمانعهم المسلمون وقالوا لتتخذن عليهم مسجداً. وروي أن بعض القوم ذهب إلى طمس الكهف عليهم وتركهم فيه مغيبين. وروي عن عبد الله بن عمر أن الله تعالى أعمى على الناس حينئذ أثرهم وحجبهم عنهم، فلذلك دعا الملك إلى بناء البنيان ليكون معلماً لهم. وقيل: إن الملك أراد أن يدفنهم في صندوق من ذهب فاتاه آت منهم في المنام فقال: أردت أن نجعلنا في صندوق من ذهب فلا تفعل؛ فإنا من التراب خلقنا وإليه نعود، فدعنا<sup>(١)</sup>.

وتنشأ هنا مسائل ممنوعة وجائزة؛ فاتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها، إلى غير ذلك مما تضمنته السنة من النهي عنه ممنوع لا يجوز؛ لما روى أبو داود والترمذي عن ابن عباس قال: لعن رسول الله ﷺ زورات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج<sup>(٢)</sup>. قال الترمذي: وفي الباب عن أبي هريرة وعائشة حديث ابن عباس حديث حسن. وروى الصحيحان عن عائشة: أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأيتها بالحبيشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرارُ الخلق عند الله تعالى يوم القيامة»<sup>(٣)</sup>. لفظ مسلم. قال علماؤنا: وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد. وروى الأئمة عن أبي مرثد الغنوي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها»<sup>(٤)</sup> لفظ مسلم. أي لا تتخذوها قبلة فتصلوا عليها أو إليها كما فعل اليهود والنصارى، فيؤدي إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام. فحذّر النبي ﷺ عن مثل ذلك، وسدّ الذرائع المؤدية إلى ذلك فقال: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحهم مساجد»<sup>(٥)</sup>. وروى الصحيحان عن عائشة وعبد الله بن عباس قالا: لما نزل

(١) هذه الروايات لا تجوز كما سبق .

(٢) ضعيف : أبو داود (٣٢٣٦) في الجنائز ، الترمذي (٣٢٠) في الجنائز وابن ماجه (١٥٧٦) الجنائز وضعفه الألباني هناك .

(٣) صحيح : البخاري (٤٢٧) في الصلاة ، مسلم (٥٢٨) في المساجد .

(٤) صحيح : وقد سبق .

(٥) صحيح : وقد سبق .

برسول الله ﷺ طَفِقَ يطرح خَمِيصَةً له على وجهه فإذا اغتمَّ بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذّر ما صنعوا<sup>(١)</sup>. وروى مسلم عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يجصّص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه<sup>(٢)</sup>. وخرّجه أبو داود والترمذي أيضاً عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن تجصّص القبور وأن يكتب عليها وأن يبنى عليها وأن توطأ<sup>(٣)</sup>. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وروى الصحيح عن أبي الهيثم الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: ألا تدعَ تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته في رواية ولا صورة إلا طمستها<sup>(٤)</sup>. وأخرجه أبو داود والترمذي. قال علماؤنا: ظاهره منع تسنيم القبور ورفعها وأن تكون لاطئة. وقد قال به بعض أهل العلم. وذهب الجمهور إلى أن هذا الارتفاع المأمور بإزالته هو ما زاد على التسنيم، ويبقى للقبر ما يعرف به ويحترم، وذلك صفة قبر نبينا محمد ﷺ وقبر صاحبيه رضي الله عنهما على ما ذكر مالك في الموطأ<sup>(٥)</sup> وقبر أبنينا آدم ﷺ؛ على ما رواه الدارقطني<sup>(٦)</sup> من حديث ابن عباس. وأما تعليمة البناء الكثير على نحو ما كانت الجاهلية تفعله تفخيماً وتعظيماً فذلك يهدم ويزال؛ فإن فيه استعمال زيتة الدنيا في أول منازل الآخرة، وتشبهاً بمن كان يعظّم القبور ويعبدها. وباعتبار هذه المعاني وظاهر النهي ينبغي أن يقال: هو حرام. والتسنيم في القبر: ارتفاعه قدر شبر؛ مأخوذ من سنام البعير. ويُرشُّ عليه بالماء لئلا ينتثر بالريح. وقال الشافعي لا بأس أن يطين القبر. وقال أبو حنيفة: لا يجصص القبر ولا يطين ولا يرفع عليه بناء فيسقط. ولا بأس بوضع الأحجار لتكون علامة؛ لما رواه أبو بكر الأثرم قال: حدّثنا مسدد حدّثنا نوح بن درّاج عن أبان بن تغلب عن جعفر بن محمد قال: كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تزور قبر حمزة بن عبد المطلب كل جمعة وعلمته بصخرة<sup>(٧)</sup>؛ ذكره أبو عمر.

وأما الجائزة: فالدفن في التابوت؛ وهو جائز لا سيما في الأرض الرّخوة. وروي أن دانيال صلوات الله عليه كان في تابوت من حجر، وأن يوسف عليه السلام أوصى بأن يتخذ له تابوت من زجاج ويلقى في ركية<sup>(٨)</sup> مخافة أن يعبد، وبقي كذلك إلى زمان موسى صلوات الله عليهم أجمعين؛ فدلّته عليه عجوز فرفعه ووضعته في حظيرة إسحاق عليه السلام. وفي الصحيح عن سعد بن أبي وقاص: أنه قال في مرضه الذي هلك فيه: اتخذوا لي لحداً وانصبوا عليّ اللبن نصباً؛ كما صنع

(١) صحيح : البخاري (٤٣٥) في الصلاة ، مسلم (٥٣١) في المساجد عن عائشة عن ابن عباس رضي الله عنهم .

واغتم : احتبس نفسه عن الخروج كما في النهاية (٨٨/٣) .

(٢) صحيح : مسلم (٩٧٠) في الجنائز والتجصيص : الطلاء بالجص وهو الجير .

(٣) صحيح : السابق ، والترمذي (١٠٥٢) في الجنائز وصححه الألباني هناك .

(٤) صحيح : مسلم (٩٦٩) في الجنائز .

(٥) وذكره البخاري (١٣٩٠) إلى سفیان التمار .

(٦) ضعيف جداً : الدارقطني (٧٠/٢) موقوفاً عن ابن عباس وفيه : عبد الرحمن بن مالك بن مغول وهو متروك .

(٧) هذا باطل : فيه نوح بن دراج : متروك ، ثم هناك انقطاع بين جعفر الصادق المولود سنة (٨٠هـ) وبين فاطمة

الزهراء رضي الله عنها المتوفاة (١١هـ) .

(٨) أي في بئر .

برسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>. اللحد: هو أن يشق في الأرض ثم يحفر قبر آخر في جانب الشق من جانب القبلة إن كانت الأرض صلبة يدخل فيه الميت ويسد عليه باللبن. وهو أفضل عندنا من الشق؛ لأنه الذي اختاره الله تعالى لرسوله ﷺ. وبه قال أبو حنيفة قال: السنة للحد. وقال الشافعي: الشق. ويكره الأجر في اللحد. وقال الشافعي: لا بأس به لأنه نوع من الحجر. وكرهه أبو حنيفة وأصحابه؛ لأن الأجر لإحكام البناء، والقبر وما فيه للبلبلى، فلا يليق به الإحكام. وعلى هذا يسوى بين الحجر والأجر. وقيل: إن الأجر أثر النار فيكره تفاعلاً؛ فعلى هذا يفرق بين الحجر والأجر. قالوا: ويستحب اللبن والقصب لما روي أنه وضع على قبر النبي ﷺ حزمة من قصب. وحكى عن الشيخ الإمام أبي بكر محمد بن الفضل الحنفي رحمه الله أنه جوز اتخاذ التابوت في بلادهم لرخاوة الأرض. وقال: لو اتخذ تابوت من حديد فلا بأس به؛ لكن ينبغي أن يفرش فيه التراب وتطين الطبقة العليا مما يلي الميت، ويجعل اللبن الخفيف على يمين الميت ويساره ليصير بمنزلة اللحد.

قلت: ومن هذا المعنى جعل القطيفة في قبر النبي ﷺ؛ فإن المدينة سيخه<sup>(٢)</sup>، قال شقران<sup>(٣)</sup>: أنا والله طرحت القطيفة تحت رسول الله ﷺ في القبر<sup>(٤)</sup>: قال أبو عيسى الترمذي: حديث شقران حديث حسن صحيح غريب.

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةً سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تَبَارِكُ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾

قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ الضمير في ﴿ سَيَقُولُونَ ﴾ يراد به أهل التوراة ومعاصري محمد ﷺ. وذلك أنهم اختلفوا في عدد أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص. وقيل: المراد به النصراني؛ فإن قوماً منهم حضروا النبي ﷺ من نجران فجرى ذكر أصحاب الكهف فقالت اليعقوبية: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم. وقالت النسطورية: كانوا خمسة سادسهم كلبهم. وقال المسلمون: كانوا سبعة ثامنهم كلبهم. وقيل: هو إخبار عن اليهود الذين أمروا المشركين بمسألة النبي ﷺ عن أصحاب الكهف. والواو في قوله: ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ طريق النحويين أنها واو عطف دخلت في آخر إخبار عن عددهم؛ لتفصل أمرهم، وتدل على أن هذا غاية ما قيل ولو سقطت لصح الكلام. وقالت فرقة منها ابن خالويه: هي واو الثمانية. وحكى الثعلبي عن أبي بكر بن عياش أن قريشاً كانت تقول في عددها ستة سبعة وثمانية؛ فتدخل الواو في الثمانية. وحكى نحوه القفال،

(١) صحيح: مسلم (٩٦٦) في الجنائز.

(٢) السبخة: أرض ذات ملح، ونز. راجع: لسان العرب مادة (سبخ).

(٣) شقران - بضم أوله وسكون القاف - مولى رسول الله ﷺ. قيل اسمه صالح. شهدا بدرأ وهو مملوك ثم عتق. قال ابن حجر - رحمه الله: أظنه مات في خلافة عثمان رضي الله عنه. راجع: تقريب التهذيب ١/٣٥٤.

(٤) صحيح: الترمذي (١٠٤٧) في الجنائز، قلت: وهناك عند مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فقال: إن قوما قالوا العدد ينتهي عند العرب إلى سبعة، فإذا احتسب إلى الزيادة عليها استؤنف خبر آخر بإدخال الواو، كقوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] يدل عليه أنه لما ذكر أبواب جهنم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ بلا واو، ولما ذكر الجنة قال: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ بالواو. وقال ﴿خَيْرًا مِّنْكُمْ مُّسْلِمَاتٍ﴾ ثم قال: ﴿وَأَبْكَارًا﴾ فالسبعة نهاية العدد عندهم كالعشرة الآن عندنا. قال القشيري أبو نصر: ومثل هذا الكلام تحكّم، ومن أين السبعة نهاية عندهم ثم هو منقوض بقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ ولم يذكر الاسم الثامن بالواو. وقال قوم ممن صار إلى أن عددهم سبعة: إنما ذكر الواو في قوله: ﴿سَبْعَةٌ وَثَمَانُهُمْ﴾ لنبته على أن هذا العدد هو الحق، وأنه مبين للأعداد الأخر التي قال فيها أهل الكتاب؛ ولهذا قال تعالى في الجملتين المتقدمتين ﴿رَجَمًا بِالْغَيْبِ﴾ ولم يذكره في الجملة الثالثة ولم يقدح فيها بشيء؛ فكانه قال لنبته هم سبعة وثمانهم كليهم. والرجم: القول بالظن؛ يقال لكل ما يُخرص: رجم فيه ومرجوم ومرجم؛ كما قال:

وما الحرب إلا ما علمتم ودقتم وما هو عنها بالحديث المرجم

قلت: قد ذكر الماوردي والغزنوي: وقال ابن جريج ومحمد بن إسحاق كانوا ثمانية، وجعلوا قوله تعالى: ﴿وَثَمَانُهُمْ كُلُّهُمْ﴾ أي صاحب كليهم. وهذا مما يقوّي طريق النحويين في الواو، وأنها كما قالوا. وقال القشيري: لم يذكر الواو في قوله: رابعهم سادسهم، ولو كان بالعكس لكان جائزاً، فطلب الحكمة والعلة في مثل هذه الواو تكلف بعيد، وهو كقوله في موضع آخر ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤]. وفي موضع آخر: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨] قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ أمر الله تعالى نبته عليه السلام في هذه الآية أن يردّ علم عدّتهم إليه عز وجل. ثم أخبر أن عالم ذلك من البشر قليل. والمراد به قوم من أهل الكتاب؛ في قول عطاء. وكان ابن عباس يقول: أنا من ذلك القليل، كانوا سبعة وثمانهم كليهم<sup>(١)</sup>، ثم ذكر السبعة بأسمائهم، والكلب اسمه قطمير كلب أتمر، فوق القلطي<sup>(٢)</sup> ودون الكردي. وقال محمد بن سعيد بن المسيّب: هو كلب صيني. والصحيح أنه زييري. وقال: ما بقي بنيسابور محدث إلا كتب عني هذا الحديث إلا من لم يقدر له. قال: وكتبه أبو عمرو الحيري عني<sup>(٣)</sup>.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمَارَ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءٌ ظَاهِرًا﴾ أي لا تجادل في أصحاب الكهف إلا بما أوحيناه إليك؛ وهو ردّ علم عدّتهم إلى الله تعالى. وقيل: معنى المراء الظاهر أن تقول: ليس كما تقولون، ونحو هذا، ولا تحتج على أمر مقدر في ذلك. وفي هذا دليل على أن الله تعالى لم يبيّن لأحد عددهم فلهذا قال ﴿إِلَّا مِرَاءٌ ظَاهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢] أي ذاهباً؛ كما قال:

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

(١) ضعيف: للانقطاع بين عطاء الخراساني وابن عباس رضي الله عنهما كذلك رواه الطبري (٢٢٧/١٥) في تفسيره.

(٢) القلطي: في اللسان: القصير جداً.

(٣) وفيه محمد بن سعيد بن المسيّب وهو مجهول لم يوثقه غير ابن حبان، وهو مقبول إلا أن يتابع كما في التقريب.

ولم يبح له في هذه الآية أن يماري؛ ولكن قوله: ﴿إِلْمَاءُ﴾ استعارة من حيث يماريه أهل الكتاب: سميت مراجعته لهم مراء ثم قيد بأنه ظاهر؛ فسارق المراء الحقيقي المذموم. والضمير في قوله: ﴿فِيهِمْ﴾ عائد على أهل الكهف. وفي قوله «منهم» عائد على أهل الكتاب المعارضين. وقوله: ﴿فَلَا تُعَارَفِيهِمْ﴾ يعني في عدتهم؛ وحذفت العدة لدلالة ظاهر القول عليها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ روي أنه عليه السلام سأل نصارى نجران عنهم فنهى عن السؤال. وفي هذا دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب في شيء من العلم.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ٢٣ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَأَذْكُرَنَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبٍ مِنْ هَٰذَا رَشْدًا﴾ ٢٤

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ٢٣ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قال العلماء: عاتب الله تعالى نبيه عليه السلام على قوله للكفار حين سأله عن الروح والفتية وذوي القرنين: غداً أخبركم بجواب أسئلتكم؛ ولم يستثن في ذلك. فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوماً حتى شق ذلك عليه وأرجف الكفار به، فنزلت عليه هذه السورة مفرجة<sup>(١)</sup>. وأمر في هذه الآية ألا يقول في أمر من الأمور إني أفعل غداً كذا وكذا، إلا أن يعلق ذلك بمشيئة الله عز وجل حتى لا يكون محققاً لحكم الخبر؛ فإنه إذا قال: لأفعلن ذلك ولم يفعل كان كاذباً، وإذا قال لأفعلن ذلك إن شاء الله خرج عن أن يكون محققاً للمخبر عنه. واللام في قوله ﴿لِشَيْءٍ﴾ بمنزلة في، أو كأنه قال لأجل شيء.

الثانية: قال ابن عطية: وتكلم الناس في هذه الآية في الاستثناء في اليمين، والآية ليست في الأيمان وإنما هي في سنة الاستثناء في غير اليمين. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ في الكلام حذف يقتضيه الظاهر ويحسنه الإيجاز؛ تقديره: إلا أن تقول إلا أن يشاء الله؛ أو إلا أن تقول إن شاء الله. فالمعنى: إلا أن تذكر مشيئة الله؛ فليس ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ من القول الذي نهى عنه.

قلت: ما اختاره ابن عطية وارتضاه هو قول الكسائي والفراء والأخفش. وقال البصريون: المعنى إلا بمشيئة الله. فإذا قال الإنسان أنا أفعل هذا إن شاء الله فمعناه بمشيئة الله. قال ابن عطية: وقالت فرقة ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء من قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾ قال: وهذا قول حكاه الطبري وردّ عليه، وهو من الفساد بحيث كان الواجب ألا يحكى. وقد تقدم القول في الاستثناء في اليمين وحكمه في «المائدة».

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرَنَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾

فيه مسألة واحدة، وهو الأمر بالذكر بعد النسيان واختلف في الذكر المأمور به؛ فقيل: هو قوله:

(١) وقد سبق بسند ضعيف .

﴿ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ . قال محمد الكوفي المفسر: إنها بالفاظها مما أمر أن يقولها كل من لم يستثن، وإنها كفارة لنسيان الاستثناء. وقال الجمهور: هو دعاء مأمور به دون هذا التخصيص. وقيل: هو قوله: ﴿ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ الذي كان نسيه عند يمينه. حكى عن ابن عباس أنه إن نسي الاستثناء ثم ذكر ولو بعد سنة لم يحنث إن كان حالفاً. وهو قول مجاهد. وحكى إسماعيل بن إسحاق ذلك عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿ وَأَذْكُرْ بِكَ إِذًا نَسِيتَ ﴾ قال: يستثنى إذا ذكره. الحسن: ما دام في مجلس الذكر. ابن عباس: ستين؛ ذكره الغزنوي قال: فيحتمل على تدارك التبرك بالاستثناء للتخلص عن الإثم. فاما الاستثناء المفيد حكماً فلا يصح إلا متصلاً. السدي: أي كل صلاة نسيها إذا ذكرها. وقيل: استثن باسمه لثلاث تنسى. وقيل اذكره متى ما نسيته. وقيل: إذا نسيت شيئاً فاذكره يذكره. وقيل: اذكره إذا نسيت غيره أو نسيت نفسك؛ فذلك حقيقة الذكر. وهذه الآية مخاطبة للنبي ﷺ، وهي استفتاح كلام على الأصح، وليست من الاستثناء في اليمين بشيء، وهي بعد تعم جميع أمته؛ لأنه حكم يتردد في الناس لكثرة وقوعه. والله الموفق.

### ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾

هذا خبر من الله تعالى عن مدة لبثهم. وفي قراءة ابن مسعود «وقالوا لبثوا». قال الطبري: إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإغثار عليهم إلى مدة النبي ﷺ، فقال بعضهم: إنهم لبثوا ثلثمائة سنة وتسع سنين، فأخبر الله تعالى نبيه أن هذه المدة في كونهم نياماً، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر. فأمر الله تعالى أن يرد علم ذلك إليه. قال ابن عطية: فقولته على هذا «لبثوا» الأول يريد في نوم الكهف، و«لبثوا» الثاني يريد بعد الإغثار إلى مدة محمد ﷺ، أو إلى وقت عدمهم بالبلاء. مجاهد: إلى وقت نزول القرآن. الضحاك: إلى أن ماتوا. وقال بعضهم: إنه لما قال: ﴿ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ لم يدر الناس أهي ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام. واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك، فأمر الله تعالى برد العلم إليه في التسع، فهي على هذا مبهمة. وظاهر كلام العرب المفهوم منه أنها أعوام، والظاهر من أمرهم أنهم قاموا ودخلوا الكهف بعد عيسى يسير وقد بقيت من الحوارين بقية. وقيل غير هذا على ما يأتي. قال القشيري: لا يفهم من التسع تسع ليال وتسع ساعات لسبق ذكر السنين؛ كما تقول: عندي مائة درهم وخمسة؛ والمفهوم منه خمسة دراهم. وقال أبو علي ﴿ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ أي ازدادوا لبث تسع؛ فحذف. وقال الضحاك: لما نزلت ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ ﴾ قالوا سنين أم شهور أم جمع أم أيام؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿ سِنِينَ ﴾. وحكى النقاش ما معناه أنهم لبثوا ثلثمائة سنة شمسية بحساب الأيام؛ فلما كان الإخبار هنا للنبي العربي ذكرت التسع؛ إذ المفهوم عنده من السنين القمرية، وهذه الزيادة هي ما بين الحسابين. ونحوه ذكر الغزنوي. أي باختلاف سني الشمس والقمر؛ لأنه يتفاوت في كل ثلاث وثلاثين وثلث سنة سنة فيكون في ثلثمائة تسع سنين. وقرأ الجمهور «ثلثمائة سنين» بتوئين مائة ونصب سنين، على التقديم والتأخير؛ أي سنين ثلثمائة فقدم الصفة على الموصوف، فتكون «سنين» على هذا بدلاً أو عطف بيان. وقيل: على التفسير والتمييز. و«سنين» في موضع سنة. وقرأ حمزة والكسائي بإضافة مائة إلى سنين، وترك

التنوين؛ كأنهم جعلوا سنين بمنزلة سنة إذ المعنى بهما واحد. قال أبو علي: هذه الأعداد التي تضاف في المشهور إلى الأحاد نحو ثلثمائة رجل وثوب قد تضاف إلى الجموع. وفي مصحف عبد الله «ثلثمائة سنة». وقرأ الضحاك «ثلثمائة سنون» بالواو. وقرأ أبو عمرو بخلاف «تسعاً» بفتح التاء وقرأ الجمهور بكسرهما. وقال الفراء والكسائي وأبو عبيدة: التقدير ولبثوا في كهفهم سنين ثلثمائة.

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَعَنَ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْبَرِيهِ وَأَسْمِعَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ قيل بعد موتهم إلى نزول القرآن فيهم، على قول مجاهد. أو إلى أن ماتوا؛ على قول الضحاك. أو إلى وقت تغييرهم بالبيلى؛ على ما تقدم. وقيل: بما لبثوا في الكهف، وهي المدة التي ذكرها الله تعالى عن اليهود وإن ذكروا زيادة ونقصاناً. أي لا يعلم علم ذلك إلا الله أو من علمه ذلك ﴿لَعَنَ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَنْبَرِيهِ وَأَسْمِعَ﴾ أي ما أبصره وأسمعه. قال قتادة: لا أحد أبصر من الله ولا أسمع. وهذه عبارات عن الإدراك. ويحتمل أن يكون المعنى ﴿أَنْبَرِيهِ﴾ أي بوحيه وإرشاده هداك وحججك والحق من الأمور، وأسمع به العالم؛ فيكونان أمرين لا على وجه التعجب. وقيل: المعنى أبصرهم وأسمعهم ما قال الله فيهم. ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أي لم يكن لأصحاب الكهف ولي يتولى حفظهم دون الله. ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ على معاصري محمد ﷺ من الكفار. والمعنى: ما لهؤلاء المختلفين في مدة لبثهم ولي دون الله يتولى تدبير أمرهم؛ فكيف يكونون أعلم منه، أو كيف يتعلمون من غير إعلامه إياهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ قرئ بالياء ورفع الكاف، على معنى الخبر عن الله تعالى. وقرأ ابن عامر والحسن وأبو رجاء وقتادة والحجدرى «ولا تشرك» بالتاء من فوق وإسكان الكاف على جهة النبي ﷺ، ويكون قوله «ولا تشرك» عطفاً على قوله ﴿أَنْبَرِيهِ وَأَسْمِعَ﴾. وقرأ مجاهد «يشرك» بالياء من تحت والجزم. قال يعقوب: لا أعرف وجهه.

مسألة: اختلف في أصحاب الكهف هل ماتوا وفنوا، أو هم نيام وأجسادهم محفوظة، فروي عن ابن عباس أنه مرّ بالشام في بعض غزواته مع ناس على موضع الكهف وجبله، فمشى الناس معه إليه فوجدوا عظماً فقالوا: هذه عظام أهل الكهف. فقال لهم ابن عباس: أولئك قوم فنوا وعدموا منذ مدة طويلة؛ فسمعه راهب فقال: ما كنت أحسب أن أحداً من العرب يعرف هذا؛ فقيل له: هذا ابن عم نبينا ﷺ. وروى فرقة أن النبي ﷺ قال: «ليحجن عيسى ابن مريم ومعه أصحاب الكهف فإنهم لم يحجوا بعد»<sup>(١)</sup>. ذكره ابن عطية.

قلت: ومكتوب في التوراة والإنجيل أن عيسى بن مريم عبد الله ورسوله، وأنه يمر بالروحاء حاجباً أو معتمراً أو يجمع الله له ذلك فيجعل الله حواريه أصحاب الكهف والرقيم، فيمرون حاجباً

(١) ضعيف منكر: ابن عدي (٦/ ٥٧٠) في الكامل عن عوف المزني.

فإنهم لم يحجوا ولم يموتوا. وقد ذكرنا هذا الخبر بكماله في كتاب «التذكرة». فعلى هذا هم نيام ولم يموتوا إلى يوم القيامة، بل يموتون قبيل الساعة.

﴿ وَأَتْلُ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ ﴿١٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿ وَأَتْلُ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ قيل: هو من تمام قصة أصحاب الكهف؛ أي اتبع القرآن فلا مبدل لكلمات الله ولا خلف فيما أخبر به من قصة أصحاب الكهف. وقال الطبري: لا مغير لما أوعد بكلماته أهل معاصيه والمخالفين لكتابه. ﴿ وَلَنْ تَجِدَ ﴾ أنت ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ إن لم تتبع القرآن وخالفته. ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ أي ملجأ. وقيل موثلاً. وأصله الميل؛ ومن لجأت إليه فقد ملت إليه. قال القشيري أبو نصر عبد الرحيم: وهذا آخر قصة أصحاب الكهف. ولما غزا معاوية غزوة المضيق نحو الروم وكان معه ابن عباس فاتمى إلى الكهف الذي فيه أصحاب الكهف؛ فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فننظر إليهم؛ فقال ابن عباس: قد منع الله من هو خير منك عن ذلك، فقال: ﴿ لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ فقال: لا انتهي حتى أعلم علمهم، وبعث قوماً لذلك، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأخرجتهم؛ ذكره الثعلبي أيضاً. وذكر أن النبي ﷺ سأل الله أن يريه إياهم، فقال إنك لن تراهم في دار الدنيا ولكن ابعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك ويدعوهم إلى الإيمان، فقال النبي ﷺ لجبريل عليه السلام: كيف أبعثهم؟ فقال: أبسط كساءك وأجلس على طرف من أطرافه أبا بكر وعلى الطرف الآخر عمر وعلى الثالث عثمان وعلى الرابع علي بن أبي طالب، ثم ادع الريح الرخاء المسخرة لسليمان فإن الله تعالى يأمرها أن تطيعك؛ ففعل فحملتهم الريح إلى باب الكهف، فقلعوا منه حجراً، فحمل الكلب عليهم فلما رأهم حرك رأسه ويصبص بذنبه وأوماً برأسه أن ادخلوا فدخلوا الكهف فقالوا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ فرد الله على الفتية أرواحهم فقاموا بأجمعهم وقالوا: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته؛ فقالوا لهم: معشر الفتية، إن النبي محمد بن عبد الله ﷺ يقرأ عليكم السلام؛ فقالوا: وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والأرض، وعليكم بما أبلغتم، وقبلوا دينه وأسلموا، ثم قالوا: أقرئوا محمداً رسول الله منّا السلام، وأخذوا مضاجعهم وصاروا إلى رقدتهم إلى آخر الزمان عند خروج المهدي. فيقال: إن المهدي يسلم عليهم فيحييهم الله ثم يرجعون إلى رقدتهم فلا يقومون حتى تقوم الساعة، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ بما كان منهم، ثم رذتهم الريح فقال النبي ﷺ: «كيف وجدتموهم؟» فأخبروه الخبر، فقال النبي ﷺ: «اللهم لا تفرق بيني وبين أصحابي وأصحابي واغفر لمن أحببني وأحب أهل بيتي وخاصتي وأصحابي»<sup>(١)</sup>. وقيل: إن أصحاب الكهف دخلوا الكهف قبل المسيح؛ فأخبر الله تعالى المسيح بخبرهم ثم بعثوا في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم. وقيل: كانوا قبل موسى عليه السلام وأن موسى ذكرهم في التوراة؛ ولهذا سألت اليهود رسول الله ﷺ. وقيل: دخلوا الكهف بعد المسيح؛ فالله أعلم أي ذلك كان.

(١) والله إنه لهو الهراء بعينه، وكان واجباً على القرطبي - رحمه الله - ألا يسود صفحة كتابه بهذه الأباطيل التي تقطر كذبا ونكارة، ولا تساوي المداد الذي كتبت به والله أعلم.

﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْعَمَنْ مِنْ أَعْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطَاً ﴾ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعِشِيِّ ﴾ هذا مثل قوله ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعِشِيِّ ﴾ في سورة «الأنعام» وقد مضى الكلام فيه. وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ: عيينة بن حصن والأقرع بن حابس فقالوا: يا رسول الله؛ إنك لو جلست في صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَأَنْتَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتْتَحِدًا ﴾ (٣٧) وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴿ حتى بلغ ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ . يتهددهم بالنار. فقام النبي ﷺ يلتمسهم حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله قال: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا ومعكم الممات»<sup>(١)</sup>. ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أي طاعته. وقرأ نصر بن عاصم ومالك بن دينار وأبو عبد الرحمن النحاس: «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغدوة والعشي» وحجتهم أنها في السواد بالواو. وقال أبو جعفر روي عن الحسن «ولا تعد عينك عنهم» أي لا تتجاوز عينك إلى غيرهم من أبناء الدنيا طلباً لزيتها؛ حكاة الزيدي. وقيل: لا تحتقرهم عينك؛ كما يقال فلان تنبو عنه العين؛ أي مستحقراً.

﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي تزئين بمجالسة هؤلاء الرؤساء الذين اقترحوا إبعاد الفقراء من مجلسك؛ ولم يرد النبي ﷺ أن يفعل ذلك، ولكن الله نهاه عن أن يفعله، وليس هذا بأكثر من قوله: ﴿ لَنْ أَشْرَكَ لِيَحْبَطَ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥]. وإن كان الله أعاده من الشرك. و﴿ تُرِيدُ ﴾ فعل مضارع في موضع الحال؛ أي لا تعد عينك مريداً؛ كقول امرئ القيس:

فقلتُ له لا تبك عينك إنما نحاول ملُكاً أو نموت فنعذراً

وزعم بعضهم أن حق الكلام: لا تعد عينك عنهم؛ لأن «تعد» متعد بنفسه. قيل له: والذي وردت به التلاوة من رفع العينين يؤول إلى معنى النصب فيهما، إذ كان لا تعد عينك عنهم بمنزلة لا تنصرف عينك عنهم، ومعنى لا تنصرف عينك عنهم لا تصرف عينك عنهم؛ فالفعل مسند إلى العينين وهو في الحقيقة موجه إلى النبي ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْبُجْكَ أَمْوَالُهُمْ ﴾ فأسند الإعجاب إلى الأموال، والمعنى: لا تعجبك يا محمد أموالهم. ويزيدك وضوحاً قول الزجاج: إن المعنى لا تصرف بصرك عنهم إلى غيرهم من ذوي الهيئات والزينة.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْعَمَنْ مِنْ أَعْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ روى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس في قوله

(١) ضعيف جداً: الواحد ص ٢٥٠ وفي إسناده: سليمان بن عطاء الحراني، وهو تالف كما في مجروحين ابن حبان (٣٢٥/١) وانظر الحلية (٣٤٥/١) لأبي نعيم والبيهقي (١٠٤٩٤) في شعب الإيمان.

تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ قال: نزلت في أمية بن خلف الجُمَحِيِّ، وذلك أنه دعا النبي ﷺ إلى أمر كرهه من تجرد الفقراء عنه وتقريب صنائيد أهل مكة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾<sup>(١)</sup> يعني من ختمنا على قلبه عن التوحيد. ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ يعني الشرك. ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ قيل هو من التفريط الذي هو التقصير وتقديم العجز بترك الإيمان. وقيل: من الإفراط ومجاوزة الحد، وكان القوم قالوا: نحن أشرف مُضَرَّ إن أسلمنا أسلم الناس؛ وكان هذا من التكبر والإفراط في القول. وقيل: ﴿فُرْطًا﴾ أي قدماً في الشر؛ من قولهم: فَرَطَ منه أمر أي سبق. وقيل: معنى ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ وجدناه غافلاً؛ كما تقول: لقيت فلاناً فأحمدته؛ أي وجدته محموداً. وقال عمرو ابن معد يكرب لبني الحارث بن كعب: والله لقد سألتناكم فما أبخلناكم وقاتلناكم فما أجبناكم، وهاجيناكم فما أحمنناكم؛ أي ما وجدناكم بخلاء ولا جبناء ولا مفحمين. وقيل: نزلت ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ في عيينة بن حصن الفزاري<sup>(٢)</sup>؛ ذكره عبد الرزاق، وحكاه النحاس عن سفيان الثوري. والله أعلم.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ رفع على خير الابتداء المضمر؛ أي قل هو الحق. وقيل: هو رفع على الابتداء، وخبره في قوله ﴿مَنْ رَبِّكُمْ﴾. ومعنى الآية: قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا: أيها الناس من ربكم الحق فإليه التوفيق والخذلان، وييده الهدى والضلال، يهدي من يشاء فيؤمن، ويضل من يشاء فيكفر، ليس إلي من ذلك شيء، فالله يؤتي الحق من يشاء وإن كان ضعيفاً، ويحرمه من يشاء وإن كان قوياً غنياً، ولست بطارد المؤمنين لهواكم؛ فإن شتمت فأمنا، وإن شتمت فاكفروا. وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر، وإنما هو وعيد وتهديد. أي إن كفرتم فقد أعد لكم النار، وإن آمنتم فلکم الجنة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أي أعدنا. ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ أي للكافرين الجاحدين. ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ قال الجوهري: السُّرَادِقُ واحد السُّرَادِقَاتِ التي تمد فوق صحن الدار. وكل بيت من كرسف<sup>(٣)</sup> فهو سرادق. قال رؤبة:

يا حَكْمُ بنِ المنذر بن الجارودُ      سرادقُ المجد عليك ممدودُ

يقال: بيت مُسَرْدَقٌ. وقال سلامة بن جندل يذكر أبرويز وقتله النعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة:

هو المدخل النعمان بيتاً سماؤه      صدورُ الفيول بعد بيت مسردق

وقال ابن الأعرابي: ﴿سُرَادِقُهَا﴾ سورها. وعن ابن عباس: حائط من نار. الكلبي: عنق تخرج

(١) واه: فيه جوير عن الضحاك وجوير تالف، والضحاك لم يلق ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) صحيح: ابن ماجه (٤١٢٧) في الزهد وصححه الألباني هناك. ضمن حديث طويل عن خباب رضي الله عنه.

(٣) كرسف: قطن.

من النار فتحيط بالكفار كالحظيرة. القتيبي: السرادق الحجرة التي تكون حول الفسطاق. وقال ابن عزيز. وقيل: هو دخان يحيط بالكفار يوم القيامة، وهو الذي ذكره الله تعالى في سورة «المرسلات» حيث يقول: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: ٣٠] وقوله: ﴿وظِلٌّ مِّنْ يَحْمُومٍ﴾ قاله قتادة. وقيل: إنه البحر المحيط بالدنيا. وروى يعلى بن أمية قال: قال رسول الله ﷺ: «البحر هو جهنم» ثم تلا ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ ثم قال: «والله لا أدخلها أبداً ما دمت حيا ولا يصيبني منها قطرة»<sup>(١)</sup> ذكره الماوردي. وخرج ابن المبارك من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «السرادق النار أربع جدر كُتِفَ كل جدار مسيرة أربعين سنة»<sup>(٢)</sup>. وخرجه أبو عيسى الترمذي، وقال فيه: حديث حسن صحيح غريب.

قلت: وهذا يدل على أن السرادق ما يعلو الكفار من دخان أو نار، وجُدُرُه ما وُصف. قوله تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَفِيثُوا يُفَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ قال ابن عباس: المهل ماء غليظ مثل دُرْدِي<sup>(٣)</sup> الزيت. مجاهد: القنج والدم. الضحاك: ماء أسود، وإن جهنم لسوداء، وماؤها أسود وشجرها أسود وأهلها سود. وقال أبو عبيدة: هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورمصاص ونحاس وقزدير، فتموج بالغليان، فذلك المهل. ونحوه عن ابن مسعود. قال سعيد بن جبيرة: هو الذي قد انتهى حره. وقال: المهل ضرب من القطران؛ يقال: مهلت البعير فهو ممهول. وقيل: هو السم. والمعنى في هذه الأقوال متقارب. وفي الترمذي عن النبي ﷺ في قوله ﴿كَالْمُهْلِ﴾ قال: «كعكر الزيت فإذا قربته إلى وجهه سقطت قروة وجهه»<sup>(٤)</sup> قال أبو عيسى: هذا حديث إنما نعرفه من حديث رشدين بن سعد ورشدين قد تكلم فيه من قبل حفظه. وخرج عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ [١٦] يتجرعه. قال: «يقرب إلى فيه فيكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت قروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره». يقول الله تعالى: ﴿وَسَقُوا مَاءَ حَمِيمًا فَفَطَعُوا أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] يقول ﴿وَأَن يَسْتَفِيثُوا يُفَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾<sup>(٥)</sup>؛ قال: حديث غريب.

قلت: وهذا يدل على صحة تلك الأقوال، وأنها مرادة، والله أعلم. وكذلك نص عليها أهل اللغة. في الصحاح ﴿كَالْمُهْلِ﴾ النحاس المذاب. ابن الأعرابي: المهل المذاب من الرصاص. وقال أبو عمرو: المهل دُرْدِي الزيت. والمهل أيضاً القبيح والصدید. وفي حديث أبي بكر: ادفونني في توبتي هذين فإنهما للمهل والتراب<sup>(٦)</sup>. و﴿مُرْتَفَقًا﴾ قال مجاهد: معناه مجتمعاً؛ كأنه ذهب إلى معنى

(١) ضعيف: أحمد (٤/٢٢٣) في المسند وضعفه المحقق هناك.

(٢) ضعيف: الترمذي (٢٥٨٤) في صفة جهنم وضعفه الألباني هناك و(كُتِفَ) جمع كثرة ل(كثيف) وهو: النخين الغليظ كما في النهاية (٤/١٥٣).

(٣) الدُرْدِي: بضم الدال - كما في النهاية (٢/١١٢) لابن الأثير: ما يركد في أسفل كل مائع (كالزيت) كالأشربة والأدهان.

(٤) ضعيف: الترمذي (٢٥٨١) وضعفه الألباني هناك.

(٥) ضعيف: الترمذي (٢٥٨٣) في صفة جهنم وضعفه الألباني هناك.

(٦) صحيح: البخاري (١٣٨٧) في الجنائز عن عائشة رضي الله عنها ولفظه (للمهلة) لا (المهل).

المرافقة. ابن عباس: منزلاً. عطاء: مقرأً. وقيل مهاداً. وقال القتبي: مجلساً. والمعنى متقارب؛ وأصله من المتكأ، يقال منه: ارتفتت أي اتكأت على المرفق. قال الشاعر:

قالت له وارتفتت ألقى يسوق بالقوم غزالات الضحا

ويقال: ارتفق الرجل إذا نام على مرفقه لا يأتيه نوم. قال أبو ذؤيب الهذلي:

نام الخلي بيت الليل مرتفقا كأن عيني فيها الصاب مذبح

الصاب: عصارة شجر مر.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِعِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۗ ﴾

لما ذكر ما أعد للكافرين من الهوان ذكر أيضاً ما للمؤمنين من الثواب. وفي الكلام إضمار؛ أي لا نضيع أجر من أحسن منهم عملاً، فأما من أحسن عملاً من غير المؤمنين فعمله مُحِيطٌ. و﴿عَمَلًا﴾ نصب على التمييز، وإن شئت بإيقاع ﴿أَحْسَنَ﴾ عليه. وقيل: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ كلام معترض، والخبر قوله ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ و﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ سرَّةُ الجنة، أي وسطها وسائر الجنات مُحَدَّقةٌ بها. وذكرت بلفظ الجمع لسعتها؛ لأن كل بقعة منها تصلح أن تكون جنة. وقيل: العَدْنُ الإقامة، يقال: عَدَنَ بالمكان إذا أقام به. وَعَدَنَتِ البلد توطنته. وَعَدَنَتِ الإبلُ بمكان كذا لزمته فلم تبرح منه؛ ومنه ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي جنات إقامة. ومنه سُمِّيَ المَعْدَنُ (بكسر الدال)؛ لأن الناس يقيمون فيه بالصيف والشتاء. ومركز كل شيء معدنه. والعادن: الناقة المقيمة في المرعى. وَعَدَنَ بلد؛ قاله الجوهري. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ تقدم في غير موضع. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وهو جمع سوار. قال سعيد بن جبير: على كل واحد منهم ثلاثة أسورة: واحد من ذهب، وواحد من ورق، وواحد من لؤلؤ.

قلت: هذا منصوص في القرآن، قال هنا ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ وقال في الحج وفاطر ﴿مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤًا﴾ [الحج: ٢٣] وفي الإنسان ﴿مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١]. وقال أبو هريرة: سمعت خليلي عليه السلام يقول: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الضوء» (١) خرَّجه مسلم. وحكى الفراء: «يحلون» بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام خفيفة؛ يقال: حلَّيت المرأة تحلَّى فهي حالية إذا لبست الحلي. وحلي الشيء بعيني يحلِّي؛ ذكره النحاس. والسَّوَارُ سوار المرأة، والجمع أسورة، وجمع الجمع أساوره. وقرئ ﴿فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ أُسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٥٣] وقد يكون الجمع أساور. وقال الله تعالى ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾، قاله الجوهري. وقال عزير: أساور جمع أسورة، وأسورة جمع سوار وسوار، وهو الذي يلبس في الذراع من ذهب، فإن كان من فضة فهو قلب وجمعه قلبه؛ فإن كان من قرن أو عاج فهي مسكة وجمعه مسك. قال النحاس: وحكى قُطْرَبُ في واحد الأساور إسوار، وقُطْرَبُ

(١) صحيح: مسلم (٢٥٠) في الطهارة.

صاحب شذوذ، قد تركه يعقوب وغيره فلم يذكره.

قلت: قد جاء في الصحاح وقال أبو عمرو بن العلاء: واحدها إسوار. وقال المفسرون: لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان جعل الله تعالى ذلك لأهل الجنة.  
قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خَضْرَاءً مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ السُّدُسُ: الرقيق النخيف، واحده سندسة؛ قاله الكسائي. والإستبرق: ما تُخُنُّ منه عن عكرمة وهو الحرير.  
قال الشاعر:

تراهنّ يلبسن المشاعر مرّة وإستبرقُ الديباج طَوْرًا لِبَاسُهَا

فالإستبرق الديباج. ابن بحر: المنسوج بالذهب. القتيبي: فارسي معرب. الجوهري: وتصغيره أَيْبِرِق. وقيل: هو استفعل من البريق. والصحيح أنه وفاق بين اللغتين؛ إذ ليس في القرآن ما ليس من لغة العرب، على ما تقدّم، والله أعلم.

وخص الأخضر بالذكر لأنه الموافق للبصر؛ لأن البياض يبدد النظر ويؤلم، والسواد يذم، والخضرة بين البياض والسواد، وذلك يجمع الشعاع. والله أعلم. روى النسائي عن عبد الله بن عمرو ابن العاص قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله، أخبرنا عن ثياب الجنة، أخلق يُخلق أم نسج ينسج؟ فضحك بعض القوم. فقال لهم: «مّمّ تضحكون من جاهل يسأل عالماً» فجلس يسيراً أو قليلاً فقال رسول الله ﷺ: «أين السائل عن ثياب الجنة؟» فقال: ها هو ذا يا رسول الله؛ قال «لا بل تشقّق عنها ثمر الجنة»<sup>(١)</sup> قالها ثلاثاً. وقال أبو هريرة: دار المؤمن درة مجوفة في وسطها شجرة تنبت الحُلل ويأخذ بأصبعه أو قال بأصبعيه سبعين حُلّة منظمة بالدر والمرجان. ذكره يحيى بن سلام في تفسيره وابن المبارك في رقائقه. وقد ذكرنا إسناده في كتاب التذكرة. وذكر في الحديث أنه يكون على كل واحد منهم الحلة لها وجهان لكل وجه لون، يتكلمان بصوت يستحسنه سامعه، يقول أحد الوجهين للآخر: أنا أكرم على وليّ الله منك، أنا إليّ جسده وأنت لا تلي. ويقول الآخر: أنا أكرم على وليّ الله منك، أنا أبصر وجهه وأنت لا تبصر.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ جمع أريكة، وهي السرر في الحجال. وقيل الفرش في الحجال؛ قاله الزجاج. ابن عباس: هي الأسرة من ذهب، وهي مكلّلة بالدر والياقوت عليها الحجال، الأريكة ما بين صنعاء إلى أيلة وما بين عدن إلى الجابية. وأصل متكنين مُوتَكْنِين، وكذلك أتكأ أصله أوتكأ، وأصل التُّكْأَةُ وكُأَةٌ؛ ومنه التوكأ للتحمّل على الشيء، فقلبت الواو تاء وأدغمت. ورجل وكُأَةٌ كثير الاتكاء. ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ يعني الجنات، عكس «وساءت مرتفقا». وقد تقدّم. ولو كان «نِعْمَتٌ» لجاز لأنه اسم للجنة. وعلى هذا «وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا». وروى البراء بن عازب: أن أعرابياً قام إلى رسول الله ﷺ في حجة الوداع، والنبي ﷺ واقف بعرفات على ناقته العُضْبَاء فقال: إني رجل مسلم فأخبرني عن هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية؛ فقال رسول الله ﷺ: «ما أنت منهم ببعيد ولا هم ببعيد منك هم هؤلاء الأربعة أبو بكر وعمر

(١) حسن: أحمد (٢/٢٠٣) والنسائي (٥٨٧٢) في الكبرى وحسنه الألباني هناك.

وعثمان وعليّ فأعلم قومك أن هذه الآية نزلت فيهم»<sup>(١)</sup> ذكره الماورديّ، وأسند النحاس في كتاب معاني القرآن، قال: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عليّ بن سهل قال حدثنا محمد بن حميد قال حدثنا يحيى بن الضريس عن زهير بن معاوية عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال: قام أعرابي...؛ فذكره. وأسند السهيلي في كتاب الاعلام. وقد روينا جميع ذلك بالإجازة، والحمد لله<sup>(٢)</sup>.

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٥﴾ كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهُمَا وَلَمَّ تَطْمَرُ مِنْهُ شَيْئًا فَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٦﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ ﴾ هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين، وهو متصل بقوله ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ . واختلف في اسم هذين الرجلين وتعيينهما؛ فقال الكلبي: نزلت في أخوين من أهل مكة مخزوميين، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ. والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد، وهما الأخوان المذكوران في سورة «الصفات» في قوله ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَوْمٌ ﴾ [الصفات: ٥١]، ورث كل واحد منهما أربعة آلاف دينار، فأنفق أحدهما ماله في سبيل الله وطلب من أخيه شيئاً فقال ما قال...؛ ذكره الثعلبيّ والقشيريّ<sup>(٣)</sup>. وقيل: نزلت في النبي ﷺ وأهل مكة. وقيل: هو مثل لجميع من آمن بالله وجميع من كفر. وقيل: هو مثل لعبيّ بن حصن وأصحابه مع سلمان وصُهب وأصحابه؛ شبههم الله برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا؛ في قول ابن عباس. وقال مقاتل: اسمه تملیخا. والآخر كافر واسمه قرطوش. وهما اللذان وصفهما الله تعالى في سورة الصفات. وكذا ذكر محمد بن الحسن المقرئ<sup>(٤)</sup> قال: اسم الخيّر منهما تملیخا، والآخر قرطوش، وأنها كانا شريكين ثم اقتسما المال فصار لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، فاشتري المؤمن منهما عبيداً بألف وأعتقهم، وبالألف الثانية ثياباً فكسا العرأة، وبالألف الثالثة طعاماً فأطعم الجوع، وبنى أيضاً مساجد، وفعل خيراً. وأما الآخر فنكح بماله نساء ذوات يسار، واشتري دواب وبقراً فاستنتجها فنمت له ثماء مفراطاً، وأتجر بباقيها فربح حتى فاق أهل زمانه غنى؛ وأدركت الأول الحاجة، فأراد أن يستخدم نفسه في جنة يخدمها فقال: لو ذهبت لشريكي وصاحبي فسألته أن يستخدمني في بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصلح بي، فجاءه فلم يكذب يصل إليه من غلظ الحجاب، فلما دخل عليه وعرفه وسأله حاجته قال له: ألم أكن قاسمتك المال نصفين فما صنعت بمالك؟ قال: اشتريت به من الله تعالى ما هو خير منه وأبقى. فقال: أئتتك لمن المصدقين، ما

(١، ٢) إسنادان ضعيفان: محمد بن حميد ضعيف متهم، انظر معاني القرآن (٤/٢٣٥) للنحاس والماوردي

(٢/٤٨٠) في النكت والعيون .

(٣) واه: الكلبي متروك كذاب متهم .

(٤) إياك وهذه الأفايص المنقولة عن كعب محرف من التوراة أو الإنجيل .

أظن الساعة قائمة وما أراك إلا سفيهاً، وما جزاؤك عندي على سفاهتك إلا الحرمان، أو ما ترى ما صنعتُ أنا بمالي حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال، وذلك أني كَسَبْتُ وسفَهتُ أنت، أخرج عني. ثم كان من قصة هذا الغني ما ذكره الله تعالى في القرآن من الإحاطة بشمره وذهابها أصلاً بما أرسل عليها من السماء من الحُسبان. وقد ذكر الثعلبي هذه القصة بلفظ آخر، والمعنى متقارب. قال عطاء: كانا شريكين لهما ثمانية آلاف دينار. وقيل: ورثاه من أبيهما وكانا أخوين فاقتماها، فاشتري أحدهما أرضاً بألف دينار، فقال صاحبه: اللهم إن فلاناً قد اشترى أرضاً بألف دينار وإني اشتريت منك أرضاً في الجنة بألف دينار فتصدق بها، ثم إن صاحبه بني داراً بألف دينار فقال: اللهم إن فلاناً بني داراً بألف دينار وإني اشتري منك داراً في الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار، ثم تزوج امرأة فأنفق عليها ألف دينار، فقال: اللهم إن فلاناً تزوج امرأة بألف دينار وإني أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار. ثم اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار، وإني اشتري منك خدماً ومتاعاً من الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار. ثم أصابته حاجة شديدة فقال: لعل صاحبي ينالني معروفه فاتاه فقال: ما فعل مالك؟ فأخبره قصته فقال: وإنك لمن المصدقين بهذا الحديث والله لا أعطيك شيئاً ثم قال له: أنت تعبد إله السماء، وأنا لا أعبد إلا صنماً؛ فقال صاحبه: والله لأعظته، فوعظه وذكره وخوفه. فقال: سرُّ بنا نصطد السمك، فمن صاد أكثر فهو على حق؛ فقال له: يا أخي إن الدنيا أحقر عند الله من أن يجعلها ثواباً لمحسن أو عقاباً لكافر. قال: فأكرهه على الخروج معه، فابتلاهها الله، فجعل الكافر يرمي شبكته ويسمي باسم صنمه، فتطلع متدفة سمكاً. وجعل المؤمن يرمي شبكته ويسمي باسم الله فلا يطلع له فيها شيء؛ فقال له: كيف ترى أنا أكثر منك في الدنيا نصيباً ومنزلة ونقراً، كذلك أكون أفضل منك في الآخرة إن كان ما تقول بزعمك حقاً. قال: فضج الملك الموكل بهما، فأمر الله تعالى جبريل أن يأخذه فيذهب به إلى الجنان فيريه منازل المؤمن فيها، فلما رأى ما أعد الله له قال: وعزتك لا يضره ما ناله من الدنيا بعد ما يكون مصيره إلى هذا؛ وأراه منازل الكافر في جهنم فقال: وعزتك لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا. ثم إن الله تعالى توفى المؤمن وأهلك الكافر بعذاب من عنده، فلما استقر المؤمن في الجنة ورأى ما أعد الله له أقبل هو وأصحابه يتساءلون، فقال: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَنتَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ﴾ [الصافات: ٥١] يقول أنتك لمن المصدقين؛ الآية؛ فنادى مناد: يا أهل الجنة هل أنتم مطَّلعون فاطلع إلى جهنم فرآه في سواء الجحيم؛ فنزلت ﴿وَأَضْرَبُ لَهُمْ مَثَلًا﴾ (١).

بين الله تعالى حال الأخوين في الدنيا في هذه السورة، وبين حالهما في الآخرة في سورة [الصافات] في قوله ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَنتَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ﴾ إلى قوله ﴿لِمَثَلٍ هَذَا فليعمل العاملون﴾. قال ابن عطية: وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب في كتابه في عجائب البلاد أن بحيرة تَنيس كانت هاتين الجنتين، وكانتا لأخوين فباع أحدهما نصيبه من الآخر فأنفق في طاعة الله حتى غيرَه الآخر، وجرت بينهما المحاوراة ففرقها الله تعالى في ليلة، وإياها عنى بهذه الآية. وقد قيل: إن

(١) ولا تصح هذه الرواية أيضاً فلا إسناد معتبر لها.

هذا مثل ضربه الله تعالى لهذه الأمة، وليس بخبر عن حال متقدمة، لتزهد في الدنيا وترغب في الآخرة، وجعله زجراً وإنذاراً؛ ذكره الماوردي. وسياق الآية يدل على خلاف هذا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَحَفَفْنَا هُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي أطفناهما من جوانبهما بنخل. والحفاف الجانب، وجمعه أحفة؛ ويقال: حَفَّ القوم بفلان يَحْفُونَ حَفًّا، أي طافوا به؛ ومنه ﴿حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعُرْحِيِّ﴾. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَوْعًا﴾ أي جعلنا حول الأعناب النخل، ووسط الأعناب الزرع ﴿كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ﴾ أي كل واحدة من الجنتين ﴿آتَتْ أَكْلَهَا﴾ تاماً، ولذلك لم يقل آتتا. واختلف في لفظ «كلنا وكلتا» هل هو مفرد أو مثني؛ فقال أهل البصرة: هو مفرد؛ لأن كلا وكلتا في توكيد الاثنين نظير «كل» في المجموع، وهو اسم مفرد غير مثني؛ فإذا وليَ اسماً ظاهراً كان في الرفع والنصب والخفض على حالة واحدة، تقول: رأيت كلا الرجلين وجاءني كلا الرجلين ومررت بكلا الرجلين؛ فإذا اتصل بمضمر قلبت الألف ياء في موضع الجر والنصب، تقول: رأيت كليهما ومررت بكليهما، كما تقول عليهما. وقال الفراء: هو مثني، وهو مأخوذ من كلٌ فحقت اللام وزيدت الألف للتثنية. وكذلك كلتا للمؤنث، ولا يكونان إلا مضافين ولا يتكلم بواحد، ولو تكلم به لقليل: كلٌ وكلتٌ وكلانٌ وكلتان. واحتج بقول الشاعر:

فِي كَلْتِ رَجُلَيْهَا سَلَامِي وَاحِدَهُ      كَلْتَاهُمَا مَقْرُونَةٌ بَزَائِدُهُ

أراد في إحدى رجليها فأفرد. وهذا القول ضعيف عند أهل البصرة؛ لأنه لو كان مثني لوجب أن تكون ألفه في النصب والجر ياءً مع الاسم الظاهر، ولأن معنى «كلا» مخالف لمعنى «كل» لأن «كلا» للإحاطة و «كلا» يدل على شيء مخصوص، وأما هذا الشاعر فإنما حذف الألف للضرورة وقدر أنها زائدة، وما يكون ضرورة لا يجوز أن يجعل حجة، فثبت أنه اسم مفرد كَمَعَى، إلا أنه وُضِعَ ليدل على التثنية، كما أن قولهم «نحن» اسم مفرد يدل على اثنين فما فوقهما، يدل على ذلك قول جرير:

كَلَا يَوْمِي أُمَامَةٌ يَوْمٌ صَدٌّ      وَإِنْ لَمْ نَأْتِهَا إِلَّا لِمَامًا

فأخبر عن «كلا» بيوم مفرد، كما أفرد الخبر بقوله «آتت» ولو كان مثني لقال آتتا، ويوما. واختلف أيضاً في ألف «كلتا»؛ فقال سيبويه: ألف «كلتا» للتأنيث والتاء بدل من لام الفعل وهي واو والأصل كلوا، وإنما أبدلت تاء لأن في التاء علم التأنيث، والألف «في كلتا» قد تصير ياء مع المضمر فتخرج عن علم التأنيث، فصار في إبدال الواو تاء تأكيداً للتأنيث. وقال أبو عمر الجرمي: التاء ملحقة والألف لام الفعل، وتقديرها عنده: فَعَتَلٌ، ولو كان الأمر على ما زعم لقالوا في النسبة إليها كَلْتَوِي، فلما قالوا كَلْوِي وأسقطوا التاء دل على أنهم أجروها مُجْرَى التاء في أخت إذا نسبت إليها قلت أخوي؛ ذكره الجوهري. قال أبو جعفر النحاس: وأجاز النحويون في غير القرآن الحمل على المعنى، وأن تقول: كلتا الجنتين آتتا أكليهما؛ لأن المعنى المختار كلتاها آتتا. وأجاز الفراء: كلتا الجنتين آتى أكله، قال: لأن المعنى كل الجنتين. قال: وفي قراءة عبد الله «كل الجنتين آتى أكله». والمعنى على هذا عند الفراء: كل شيء من الجنتين آتى أكله. والأكل (بضم الهمزة) ثمر النخل والشجر. وكل ما يؤكل فهو أكل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَكْلَاهَا دَائِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥] وقد تقدم. ﴿وَلَمْ تَنْظِمِ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي لم تنقص.

قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ أي أجرينا وشققنا وسط الجنتين بنهر. ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة وعاصم ويعقوب وابن أبي إسحاق «ثمر» بفتح الثاء والميم، وكذلك قوله: ﴿وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ جمع ثمرة. قال الجوهري: الثمرة واحدة الشمر والشمرات، وجمع الشمر ثمار؛ مثل جبل وجبال. قال الفراء: وجمع الثمار ثمر؛ مثل كتاب وكتب، وجمع الثمر أثمار؛ مثل أعناق وعنق. والثمر أيضاً المال المثمر؛ يخفف ويثقل. وقرأ أبو عمرو «وكان له ثمر» بضم الثاء وإسكان الميم، وفسره بأنواع المال. الباقون بضمها في الحرفين. قال ابن عباس: ذهب وفضة وأموال. وقد مضى في «الأنعام» نحو هذا مبيئاً. وذكر النحاس: حدثنا أحمد بن شعيب قال أخبرني عمران بن بكار قال حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي قال حدثنا شعيب بن إسحاق قال أخبرنا هارون قال حدثني أبان عن ثعلب عن الأعمش أن الحجاج قال: لو سمعت أحداً يقرأ ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ لقطع لسانه؛ فقلت للأعمش: أتأخذ بذلك؟ فقال: لا ولا نعمة عين. فكان يقرأ «ثمر» ويأخذه من جمع الشمر. قال النحاس: فالتقدير على هذا القول أنه جمع ثمرة على ثمار، ثم جمع ثمار على ثمر؛ وهو حسن في العربية إلا أن القول الأول أشبه والله أعلم؛ لأن قوله ﴿كَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ يدل على أن له ثمرًا.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي يراجعه في الكلام ويجاوبه. والمحاورة المجاوبة، والتحاوير التجاوب. ويقال: كلمته فما أحرار إلي جواباً، وما رجع إلي حويراً ولا حويرة ولا محورة ولا حواراً؛ أي ما رد جواباً. ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ النفر: الرهط وهو ما دون العشرة. وأراد هاهنا الاتباع والخدم والولد، حسبما تقدم بيانه.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۖ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۗ﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ قيل: أخذ بيد أخيه المؤمن يطيف به فيها ويريه إياها. ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أي بكفره، وهو جملة في موضع الحال. ومن أدخل نفسه النار بكفره فهو ظالم لنفسه. ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ أنكر فناء الدار. ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي لا أحسب البعث كائناً. ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي وإن كان بعث فكما أعطاني هذه النعم في الدنيا فسيعطيني أفضل منه لكرامتي عليه؛ وهو معنى قوله: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ وإنما قال ذلك لما دعاه أخوه إلى الإيمان بالحشر والنشر. وفي مصاحف مكة والمدينة والشام «منهما». وفي مصاحف أهل البصرة والكوفة «منها»<sup>(١)</sup> على التوحيد، والتثنية أولى؛ لأن الضمير أقرب إلى الجنتين.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ وَأَكَفَّرَتْ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ تَرْمِي نُفْفَةً تُمْسُونَكَ رَجُلًا ۗ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۗ﴾

(١) قراءة سبعية: السبعة ص ٣٩ لابن مجاهد.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ ﴾ يهوذا أو تلميذا؛ على الخلاف في اسمه. ﴿ أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴾ وعظه وبين له أن ما اعترف به من هذه الأشياء التي لا ينكرها أحد أبدع من الإعادة. و ﴿ سَوَّكَ رَجُلًا ﴾ أي جعلك معتدل القامة والخلق، صحيح الأعضاء ذكراً. ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾ كذا قرأه أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ وأبو العالية. وروي عن الكسائي ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ ﴾ بمعنى لكن الأمر هو الله ربي، فأضمر اسمها فيها. وقرأ الباقون «لكننا» بإثبات الألف. قال الكسائي: فيه تقديم وتأخير، تقديره: لكن الله هو ربي أنا، فحذفت الهمزة من «أنا» طلباً للخفة لكثرة الاستعمال وأدغمت إحدى النونين في الأخرى وحذفت ألف «أنا» في الوصل وأثبتت في الوقف. وقال النحاس: مذهب الكسائي والفرّاء والمازني أن الأصل لكن أنا فألقت حركة الهمزة على نون لكن وحذفت الهمزة وأدغمت النون في النون فالوقف عليها لكنا وهي ألف أنا لبيان الحركة. وقال أبو عبيد: الأصل لكن أنا، فحذفت الألف فالتقت نونان فجاء بالتشديد لذلك، وأنشدنا الكسائي:

لَهَنَّاكَ مِنْ عَبَسِيَّةٍ لَوْ سَمِمَةٌ عَلَى هَنَوَاتٍ كَاذِبٍ مِنْ يَقُولِهَا

أراد: لله إنك (لوسيمة)، فأسقط إحدى اللامين من «لله» وحذف الألف من إنك. وقال آخر

فجاء به على الأصل:

وترمينني بالطرف أي أنت مذنب وتقلّنيني لكن إياك لا أقلي

أي لكن أنا. وقال أبو حاتم: ورووا عن عاصم «لكننا هو الله ربي» وزعم أن هذا لحن، يعني إثبات الألف في الإدراج. قال الزجاج: إثبات الألف في ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾ في الإدراج جيد؛ لأنه قد حذفت الألف من أنا فجاءوا بها عوضاً. قال: وفي قراءة أبي «لكن أنا هو الله ربي». وقرأ ابن عامر والمسيبي عن نافع ورويس عن يعقوب «لكننا» في حال الوقف والوصل معاً بإثبات الألف. وقال الشاعر:

أنا سيف العشيرة فاعرفوني حميداً قد تدرّيتُ السّناما

وقال الأعشى:

كفيف أنا وانتحال القوافي بعد المشيب كفى ذاك عاراً

ولا خلاف في إثباتها في الوقف. ﴿ هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾ ﴿ هُوَ ﴾ ضمير القصة والشأن والأمر؛ كقوله ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الأنبياء: ٩٧] وقوله ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾. ﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ دلّ مفهومه على أن الأخ الآخر كان مشركاً بالله تعالى يعبد غيره. ويحتمل أنه أراد لا أرى الغنى والفقر إلا منه، وأعلم أنه لو أراد أن يسلب صاحب الدنيا دنياه قدر عليه؛ وهو الذي أتاني الفقر. ويحتمل أنه أراد جحدوك البعث مصيره إلى أن الله تعالى لا يقدر عليه، وهو تعجيز الرب سبحانه وتعالى، ومن عجزه سبحانه وتعالى شبهه بخلقه؛ فهو إشراك.

﴿ وَوَلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتِ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرِنًا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾

فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فُتُصِحِّحُ صَعِيدًا زَلَقًا ۝ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۝ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي بالقلب، وهو توبيخ ووصية من المؤمن للكافر ورد عليه، إذ قال «مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا» و «مَا» في موضع رفع، تقديره: هذه الجنة هي ما شاء الله.

وقال الزجاج والفراء: الأمر ما شاء الله، أو هو ما شاء الله؛ أي الأمر مشيئة الله تعالى. وقيل: الجواب مضمرة، أي ما شاء الله كان، وما لا يشاء لا يكون. ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي ما اجتمع لك من المال فهو بقدره الله تعالى وقوته لا بقدرتك وقوتك، ولو شاء لنزع البركة منه فلم يجتمع.

الثانية: قال أشهب قال مالك: ينبغي لكل من دخل منزله أن يقول هذا. وقال ابن وهب قال لي حفص بن ميسرة: رأيت على باب وهب بن منبه مكتوباً ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (١). وروي عن النبي ﷺ أنه قال لأبي هريرة: «ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة أو قال كنز من كنوز الجنة؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله إذا قالها العبد قال الله عز وجل أسلم عبدي واستسلم» (٢) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى. وفيه: فقال: «يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة في رواية على كنز من كنوز الجنة؟ قلت: ما هي يا رسول الله، قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله» (٣). وعنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة أو قال كنز من كنوز الجنة» قلت: بلى؛ فقال «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» (٤). وروي أنه من دخل منزله أو خرج منه فقال: باسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله تنافرت عنه الشياطين من بين يديه وأنزل الله تعالى عليه البركات. وقالت عائشة: إذا خرج الرجل من منزله فقال باسم الله قال الملك هُدَيْتَ، وإذا قال: ما شاء الله قال الملك: كُفَيْتَ، وإذا قال: لا قوة إلا بالله قال الملك وُقِيَتْ (٥). أخرجه الترمذي من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال يعني إذا خرج من بيته: باسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله يقال: كُفَيْتَ ووُقِيَتْ وتَنَحَّى عنه الشيطان» (٦) هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. أخرجه أبو داود أيضاً وزاد فيه فقال له: «هُدَيْتَ وكُفَيْتَ ووُقِيَتْ» (٧). وأخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة

(١) عزاه السيوطي (٥٤٣/٩) في الدر المنثور لابن أبي حاتم.

(٢) صحيح: أحمد (٢٩٨/٢) وصححه العلامة شاکر هناك والألباني (٢٦١٤) في صحيح الجامع.

(٣) صحيح: البخاري (٤٢٠٥) في المغازي، مسلم (٢٧٠٤) في الذكر والدعاء.

(٤) صحيح: مسلم (٤٥/٢٧٠٤) في الذكر والدعاء دون «إلا بالله العلي العظيم» (٤٧/٢٧٠٤) أيضاً.

(٥) انظر التالي.

(٦) صحيح: الترمذي (٣٤٢٦) في الدعوات وصححه الألباني هناك أبو داود (٥٠٩٥) في الأدب، وابن السني

(١٧٨) وصححه الألباني.

(٧) صحيح: انظر السابق.

أن النبي ﷺ قال: «إذا خرج الرجل من باب بيته أو باب داره كان معه ملكان موكلان به فإذا قال باسم الله قالاً هُديت وإذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله قالاً: وقُيت وإذا قال توكلت على الله قالاً: كفيت قال فيلقاه قرينه فيقولان: ماذا تريدان من رجل قد هُديَ ووُقيَ وكُفيَ» (١). وقال الحاكم أبو عبد الله في علوم الحديث: سئل محمد بن إسحاق بن خزيمة عن قول النبي ﷺ: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتْ هَذِهِ الْجَنَّةُ يَدْخُلُنِي الضَّعْفَاءُ» (٢) من الضعيف؟ قال: الذي يبرئ نفسه من الحول والقوة يعني في اليوم عشرين مرة أو خمسين مرة. (٣) وقال أنس بن مالك قال النبي ﷺ: «من رأى شيئاً فأعجبه فقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره عين» (٤). وقد قال قوم: ما من أحد قال ما شاء الله كان فأصابه شيء إلا رَضِيَ به. وروي أن من قال أربعاً أَمِنَ من أربع: من قال هذه أَمِنَ من العين، ومن قال حسبنا الله ونعم الوكيل أَمِنَ من كيد الشيطان، ومن قال وأفوض أمري إلى الله أَمِنَ مكر الناس، ومن قال لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين أَمِنَ من الغم» (٥).

قوله تعالى: ﴿إِن تَرَىٰ أَنَا أَقْلَمَ مِنْكَ مَا لَوْ وُلِدْنَا﴾ ﴿إِن﴾ شرط ﴿تَرَىٰ﴾ مجزوم به، والجواب ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي﴾ و ﴿أَنَا﴾ فاصلة لا موضع لها من الإعراب. ويجوز أن تكون في موضع نصب توكيداً للنون والياء. وقرأ عيسى بن عمر «إن ترن أنا أقل منك» بالرفع؛ يجعل ﴿أَنَا﴾ مبتدأ و ﴿أَقْلَمَ﴾ خبره، والجملة في موضع المفعول الثاني، والمفعول الأول النون والياء؛ إلا أن الياء حذفت لأن الكسرة تدل عليها، وإثباتها جيد بالغ وهو الأصل لأنها الاسم على الحقيقة. و ﴿فَعَسَىٰ﴾ بمعنى لعل، أي فلعل ربي. ﴿أَن يُؤْتِنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ أي في الآخرة. وقيل في الدنيا. ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْهَا﴾ أي على جنتك. ﴿حُسْبَانًا﴾ أي مرامي من السماء، واحداً حُسْبَانَةً؛ قاله الاخفش والقُتَيْبِيُّ وأبو عبيدة. وقال ابن الأعرابي: والحسبانة السحابية، والحسبانة الوسادة، والحسبانة الصَّاعِقَةُ. وقال الجوهري: والحسبان (بالضم): العذاب. وقال أبو زياد الكلابي: أصاب الأرض حُسبان أي جراد. والحسبان أيضاً الحساب، قال الله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥] وقد فُسر الحُسبان هنا بهذا. قال الزجاج: الحسبان من الحساب؛ أي يرسل عليها عذاب الحساب، وهو حساب ما اكتسبت يداك؛ فهو من باب حذف المضاف. والحسبان أيضاً: سهام قصار يرمى بها في طَلْقٍ واحد، وكان من رمي الأكاسرة. والمرامي من السماء عذاب. ﴿فَتَصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ يعني أرضاً بيضاء لا ينبت فيها نبات ولا يثبت عليها قدم، وهي أضرّ أرض بعد أن كانت جنة أنفع أرض؛ و ﴿زَلَقًا﴾ تأكيد لوصف الصعيد؛ أي تزل عنها الأقدام لملاستها. يقال: مكان زَلَقٌ (بالتحريك) أي دَحْضٌ، وهو في الأصل مصدر قولك: زَلَقْتَ رجله تَزَلَقَ زَلَقًا، وأزلقها غيره. والزلق أيضاً عجز الدابة. قال رؤبة:

(١) ضعيف: ابن ماجة (٣٨٨٦) في الدعاء وضعفه الألباني هناك.

(٢) هذا في الصحيحين وقد سبق.

(٣) انظر معرفة علوم الحديث ص ٨٤ للحاكم، وفيض القدير (١٠٢/٣) للمناوي.

(٤) ضعيف جداً: الهيثمي (١٠٩/٥) في المجمع وعزاه للبخاري من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه، وفيه أبو بكر

الهدلي ضعيف جداً وابن السني (٢٠٧) بترقيمي بنفس الإسناد.

(٥) ولكن أين الإسناد.

كَانَهَا حَقْبَاءُ بَلْقَاءِ الزَّلْقِ

والمزْلَقَةُ والمزْلَقَةُ: الموضع الذي لا يثبت عليه قدم. وكذلك الزَّلَاقَةُ. والزَّلْقُ الحَلْقُ، زَلَقَ رَأْسَهُ يَزْلِقُهُ زَلْقًا حَلْقًا؛ قاله الجوهري. والزَّلْقُ المحلوق، كالتَّقْضِ والتَّقْضِ. وليس المراد أنها تصير مزْلَقَةً، بل المراد أنها لا يبقى فيها نبات كالرأس إذا حَلَقَ لا يبقى عليه شعر؛ قاله القشيري. ﴿أَوْ يُصْبِحُ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ أي غائراً ذاهباً، فتكون أعدم أرض للماء بعد أن كانت أوجد أرض للماء. والغَوْرُ مصدر وضع موضع الاسم؛ كما يقال: رجلٌ صَوْمٌ وفَطْرٌ وعدْلٌ وِرِضاً وقَضْلٌ وزَوْرٌ ونساءٌ نوحٌ؛ ويستوى فيه المذكور والمؤنث والتثنية والجمع. قال عمرو بن كلثوم:

تَظَلَّ جِيادَهُ نَوْحًا عَلَيْهِ مَقْلَدَةٌ أَعْتَمَتْهَا صُفُونَا

آخر:

هَرِيقِي مِنْ دَموعِهَا سَجَامَةً ضَبَاعٍ وَجَاوِبِي نَوْحًا قِيَامًا

أي نائحات. وقيل: أو يصبح ماؤها ذا غور؛ فحذف المضاف؛ مثل ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] ذكره السحاس. وقال الكسائي: ماءٌ غورٌ. وقد غار الماء يُغورُ غوراً وغوروراً، أي سفل في الأرض، ويجوز الهمز لانضمام الواو. وغارت عينه تَغورُ غوراً وغوروراً؛ دخلت في الرأس. وغارت تغار لغة فيه. وقال:

أَغَارَتْ عَيْنُهُ أَم لَمْ تَغَارًا

وغارت الشمس تغور غياراً، أي غربت. قال أبو ذؤيب:

حَلَّ النَّهْرُ بِالْأَمْلِيَّةِ وَنَهَارُهَا وَإِلَّا طَلُوعُ الشَّمْسِ ثُمَّ غِيَارُهَا

﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ ظَلْمًا﴾ أي لن تستطيع رد الماء الغائر، ولا تقدر عليه بحيلة. وقيل: فلن تستطيع

طلب غيره بدلاً منه. وإلى هذا الحديث انتهت مناظرة أخيه وإنذاره.

﴿وَأَحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَرَأْسِكِ رَبِّي أَحَدًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَحِيطَ بِشَرِّهِ﴾ اسم ما لم يسم فاعله مضمر، وهو المصدر. ويجوز أن يكون المخفوض في موضع رفع. ومعنى ﴿وَأَحِيطَ بِشَرِّهِ﴾ أي أهلك ماله كله. وهذا أول ما حقق الله تعالى به إنذار أخيه. ﴿فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَيْهِ﴾ أي فأصبح الكافر يضرب إحدى يديه على الأخرى ندماً؛ لأن هذا يصدر من الندام. وقيل: يقْلِبُ ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق؛ وهذا لأن الملك قد يعبر عنه باليد، من قولهم: في يده مال، أي في ملكه مال. ودل قوله ﴿فَأَصْبَحَ﴾ على أن هذا الإهلاك جرى بالليل؛ كقوله ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [٥٦] فأصبحت كالصريم [القلم: ١٩] ويقال: أنفقت في هذه الدار كذا وأنفقت عليها. ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي خالية قد سقط بعضها على بعض؛ مأخوذ من خوت النجوم تخوى خياً أمحلت، وذلك إذا سقطت ولم تُمطر في نوتها. وأخوت مثله. وخوت الدار خواء أوت، وكذلك إذا سقطت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَلَكَّ بِيوتِهِمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢] ويقال ساقطة؛ كما يقال فهي خاوية على عروشها أي ساقطة على سقفها؛

فجمع عليه بين هلاك الثمر والأصل، وهذا من أعظم الجوائح، مقابلةً على بغيه. ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أي يا ليتني عرفت نعم الله عليّ، وعرفت أنها كانت بقدرة الله ولم أكفر به. وهذا ندم منه حين لا ينفعه الندم.

### ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةً يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةً يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ «فِئَةٌ» اسم «تَكُنْ» و «لَهُ» الخبر. «يَنْصُرُونَهُ» في موضع الصفة، أي فئة ناصرة. ويجوز أن يكون «يَنْصُرُونَهُ» الخبر. والوجه الأول عند سيويه أولى لأنه قد تقدم «لَهُ». وأبو العباس يخالفه، ويحتج بقول الله عز وجل ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] وقد أجاز سيويه الآخر. و «يَنْصُرُونَهُ» على معنى فئة؛ لأن معناها أقوام، ولو كان على اللفظ لقال ولم تكن له فئة تنصره؛ أي فرقة وجماعة يلتجئ إليهم. ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ أي ممتنعاً؛ قاله قتادة. وقيل: مسترداً بدل ما ذهب منه. وقد تقدم اشتقاق الفئة في «آل عمران». والهاء عوض من الياء التي نقصت من وسطه، أصله فيءٌ مثلُ فيع؛ لأنه من فاء، ويجمع على فئون وفئسات، مثل شيبات وليدات ومئات. أي لم تكن له عشيرة يمنعونه من عذاب الله، وضلّ عنه من افتخر بهم من الخدم والولد.

### ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ اختلف في العامل في قوله «هُنَالِكَ» وهو ظرف؛ فقيل: العامل فيه «وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ» ولا كان هنالك؛ أي ما نصر ولا انتصر هنالك، أي لما أصابه من العذاب. وقيل: تم الكلام عند قوله «مُنتَصِرًا». والعامل في قوله: «هُنَالِكَ» «الْوَلَايَةُ» وتقديره على التقديم والتأخير: الولاية لله الحقّ هنالك، أي في القيامة. وقرأ أبو عمرو والكسائي «الحقّ» بالرفع نعتاً للولاية. وقرأ أهل المدينة وحمزة «الحقّ» بالخفض نعتاً لله عز وجل، والتقدير: لله ذي الحق. قال الزجاج: ويجوز «الحقّ» بالنصب على المصدر والتوكيد؛ كما تقول: هذا لك حقاً. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي «الولاية» بكسر الواو، الباقون بفتحها، وهما بمعنى واحد كالرّضاعة والرّضاعة. وقيل: الولاية بالفتح من الموالاتة؛ كقوله «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا» [البقرة: ٢٥٧]. «ذَلِكَ بَأْنُ اللَّهِ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا» [محمد: ١٦]. وبالكسر يعني السلطان والقدرة والإمارة؛ كقوله: «وَالْأَمْرُ يُؤْتَى لِلَّهِ» [الانفطار: ١٩] أي له الملك والحكم يومئذ، أي لا يُردّ أمره إلى أحد؛ والملك في كل وقت لله ولكن تزول الدعاوى والتّوهّمات يوم القيامة. وقال أبو عبيد: إنها بفتح الواو للخالق، وبكسرها للمخلوق. «هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا» أي الله خير ثواباً في الدنيا والآخرة لمن آمن به، وليس ثمّ غير يُرجى منه، ولكنه أراد في ظن الجاهل؛ أي هو خير من يُرجى. «وَخَيْرٌ عُقْبًا» قرأ عاصم والأعمش وحمزة ويحيى «عُقْبًا» ساكنة القاف، الباقون بضمها، وهما بمعنى واحد؛ أي هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به. يقال: هذا عاقبة أمر فلان وعقباه وعقبه، أي آخره.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي صف لهؤلاء المتكبرين الذين سألك طرد فقراء المؤمنين مثل الحياة الدنيا، أي شبهها. ﴿كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾ أي بالماء. ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ حتى استوى. وقيل: إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء؛ لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر. وقد تقدّم هذا المعنى في «يونس» مبيّناً. وقالت الحكماء: إنما شبه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يتلّ الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفتني، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يتلّ كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنها وأفتها، ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعاً مبيّناً، وإذا جاوز المقدار كان ضاراً مهلكاً، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر. وفي حديث النبي ﷺ: قال له رجل: يا رسول الله، إني أريد أن أكون من الفائزين؛ قال: «ذَرِ الدُّنْيَا وَخُذْ مِنْهَا كَالْمَاءِ الرَّائِدِ فَإِنَّ الْقَلِيلَ مِنْهَا يَكْفِي وَالكَثِيرُ مِنْهَا يُطْفِئُ»<sup>(١)</sup>. وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه»<sup>(٢)</sup>. ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي النبات ﴿هَشِيمًا﴾ أي متكسراً من اليبس متفتتاً، يعني بانقطاع الماء عنه، فحذف ذلك إيجازاً لدلالة الكلام عليه. والهشيم: كسر الشيء اليابس. والهشيم من النبات اليابس المتكسر، والشجرة البالية يأخذها الحاطب كيف يشاء. ومنه قولهم: ما فلان إلا هشيمه كرم؛ إذا كان سَمْحاً. ورجل هشيم: ضعيف البدن. وتهشم عليه فلان إذا تعطف. واهتشم ما في ضرع الناقة إذا احتلبه. ويقال: هشم الثريد؛ ومنه سُمِّيَ هاشم بن عبد مناف واسمه عمرو، وفيه يقول عبد الله بن الزبيرى:

عَمْرُو الْعَلَا هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ      وَرَجَالُ مَكَّةَ مُسْتَنْتُونَ عَجَافُ

وكان سبب ذلك أن قريشاً أصابتهم سنون ذهبين بالأموال فخرج هاشم إلى الشام فأمر بخبز كثير فخبز له، فحمله في الغرائر على الإبل حتى وافى مكة، وهشم ذلك الخبز، يعني كسره وتروده، ونحر تلك الإبل، ثم أمر الطهارة فطبخوا، ثم كفا القدور على الجفان فأشبع أهل مكة؛ فكان ذلك أول الحياء بعد السنة التي أصابتهم؛ فسمي بذلك هاشماً. ﴿تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ أي تفرقه؛ قاله أبو عبيدة. ابن قتيبة: تسفه. ابن كيسان: تذهب به وتجيء. ابن عباس: تديره؛ والمعنى متقارب. وقرأ طلحة بن مُصَرِّفٍ «تذريه الريح». قال الكسائي: وفي قراءة عبد الله «تذريه». يقال: ذرته الريح تذرؤه ذرؤاً (وتذريه) ذرئاً وأذرته تذريره إذراء إذا طارت به. وحكى الفراء: أذريت الرجل عن فرسه أي قلبته. وأنشد سيبويه والفراء:

فَقَلْتُ لَهُ صَوَّبٌ وَلَا تَجْهَدُهُ      فَيُذْرِكُ مِنْ أُخْرَى الْقَطَاةِ فَتَزَلُّ

(١) هذا أثر منكر للغاية .

(٢) صحيح : مسلم (١٠٥٤/١٢٥) في الزكاة عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ من الإنشاء والإفناء والإحياء، سبحانه

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾

قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ويجوز «زينا» وهو خير الابتداء في التثنية والافراد. وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا لأن في المال جمالاً ونفعاً، وفي البنين قوةً ودفعاً، فصارا زينة الحياة الدنيا، لكن معه قرينة الصفة للمال والبنين؛ لأن المعنى: المال والبنون زينة هذه الحياة المحتقرة فلا تُبِعِوهما نفوسكم. وهو ردُّ على عُيَيْنَةَ بن حِصْنٍ وأمثاله لما افتخروا بالغنَى والشرف، فأخبر تعالى أن ما كان من زينة الحياة الدنيا فهو غرور يمر ولا يبقى، كالهشيم حين ذرته الريح؛ إنما يبقى ما كان من زاد القبر وعُدَد الآخرة. وكان يقال: لا تعقد قلبك مع المال لأنه فيءٌ ذاهب، ولا مع النساء لأنها اليوم معك وغداً مع غيرك، ولا مع السلطان لأنه اليوم لك وغداً لغيرك. ويكفي في هذا قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]

قوله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أي ما يأتي به سلمان وصُهيب وفقراء المسلمين من الطاعات «خيرٌ عند ربك ثواباً» أي أفضل «وخَيْرٌ أَمَلًا» أي أفضل أملاً من ذي المال والبنين دون عمل صالح، وليس في زينة الدنيا خير، ولكنه خرج مخرج قوله «أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً» [الفرقان: ٢٤] وقيل: خير في التحقيق مما يظنه الجهال لأنه خير في ظنهم.

واختلف العلماء في «وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ»؛ فقال ابن عباس وابن جبير وأبو ميسرة وعمرو بن شُرْحَيْبِل: هي الصلوات الخمس. وعن ابن عباس أيضاً: أنها كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للأخرة. وقاله ابن زيد ورجحه الطبري. وهو الصحيح إن شاء الله؛ لأن كل ما بقي ثوابه جاز أن يقال له هذا. وقال علي رضي الله عنه: الحرث حرثان فحرث الدنيا المال والبنون؛ وحرث الآخرة الباقيات الصالحات، وقد يجمعهن الله تعالى لأقوام. وقال الجمهور: هي الكلمات الماثور فضلها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. خرجه مالك في موطئه عن عمارة بن صياد عن سعيد بن سعيد بن المسيب أنه سمعه يقول في الباقيات الصالحات: إنها قول الجهد لله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله (١). أسنده النسائي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات» قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: المسألة: وقيل ما هي يا رسول الله؟ قال: «التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله» (٢). صححه أبو محمد عبد الحق رحمه الله. وروى قتادة: أن رسول

(١) صحيح مقطوعاً: الإمام مالك حديث رقم (٢٣) في كتاب القرآن باب (٧) من الموطأ، وابن كثير (١٢٣/٥) في

تفسيره.

(٢) ضعيف: محمد (٧٥/٣) وأبو يعلى (١٣٨٤) والظري (٢٥٥/١٥) وفيه رواية دراج أبي السمح عن أبي الهيثم

وفيها ضعف بين.

الله ﷺ أخذ غُصْناً فخرطه حتى سقط ورقه وقال: «إن المسلم إذا قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تحاتت خطاياه كما تحات هذا خذهن إليك أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن فإنهن من كنوز الجنة وصفايا الكلام وهن الباقيات الصالحات (١)». ذكره الثعلبي، وخرجه ابن ماجه بمعناه من حديث أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «عليك بسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فإنهن يعني يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها (٢)». وأخرجه الترمذي من حديث الأعمش عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ مرّ بشجرة يايسة الورقة فضربها بعصاة فتناثر الورق فقال: «إن الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر لتساقط من ثنوب العبد كما تساقط ورق هذه الشجرة (٣)». قال: هذا حديث غريب ولا نعرف للأعمش سماعاً من أنس، إلا أنه قد رآه ونظر إليه. وخرج الترمذي أيضاً عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقَبْتُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْلَةَ أُسْرِيَّ بِبِي فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَقْرَى أُمَّتِكَ مِنِّي السَّلَامُ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ الْمَاءِ وَأَنَّهَا قِيَعَانٌ وَأَنَّ غِرَاسَهَا سَبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ» قال (٤): حديث حسن غريب، خرجه الماوردي بمعناه. وفيه قلت: وما غراس الجنة؟ قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله». وخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ مرّ به وهو يُغْرَسُ غَرْساً فقال: «يا أبا هريرة ما الذي تُغْرَسُ؟» قلت: غراساً. قال «إلا أدلك على غراس خير من هذا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر يُغْرَسُ لك بكل واحدة شجرة في الجنة (٥)». وقد قيل: إن الباقيات الصالحات هي البنات والهَمَّاتُ؛ لأن بها تقبل الأعمال وترفع؛ قاله الحسن. وقال عبيد بن عمير: هن البنات؛ يدل عليه أوائل الآية؛ قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ثم قال ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ يعني البنات الصالحات هن عند الله لأبائهن خير ثواباً، وخير أملاً في الآخرة لمن أحسن إليهن. يدل عليه ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت علي امرأة مسكينة... الحديث (٦)، وقد ذكرناه في سورة النحل في قوله ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ﴾ [النحل: ٥٩] الآية. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «لقد رأيت رجلاً من أمتي أمر به إلى النار فتعلق به بناته وجعلن يصرخن ويقلن رب إنه كان يحسن إلينا في الدنيا فرحمه الله بهن». وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ قال: أبدلها منه ابنة فتزوجها نبي فولدت له اثني عشر غلاماً كلهم أنبياء.

(١) منقطع : بين قتادة وأبي الدرداء رضي الله عنه ، ورواه السيوطي (٩/٥٥٤) بنحوه في الدر وعزه لابن مردويه عن أنس رضي الله عنه .

ثم رواه الطبراني (١٠/٩٠) وابن ماجه (٣٨١٣) بسند ضعيف كما قال الألباني - رحمه الله ، ولكن عن أبي الدرداء لا عن قتادة وليس فيه ذكر قتادة من قريب أو من بعيد .

(٢) ضعيف : انظر السابق .

(٣) حسن : الترمذي (٣٥٣٣) في الدعوات وحسنه الألباني هناك .

(٤) حسن : الترمذي (٣٤٦٢) في الدعوات وحسنه الألباني هناك .

(٥) صحيح : ابن ماجه (٣٨٠٧) في الدعاء وصححه الألباني هناك .

(٦) صحيح : وقد سبق .

## ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ قال بعض النحويين: التقدير والباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسيّر الجبال. قال النحاس: وهذا غلط من أجل الواو. وقيل: المعنى واذكر (١) يوم نسيّر الجبال، أي نزيلها من أملكها من على وجه الأرض، ونسيرها كما نسير السحاب؛ كما قال في آية أخرى ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل: ٨٨] ثم تكسر فتعود إلى الأرض؛ كما قال ﴿ وَبَسَّتِ الْجِبَالَ بَسًّا ﴾ ﴿ فَكَفَّتْ هَبَاءً مُنِيئًا ﴾ [الواقعة: ٥] وقرأ ابن كثير والحسن وأبو عمرو وابن عامر ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ﴾ بباء مضمومة وفتح الياء. و﴿ الْجِبَالَ ﴾ رفعاً على الفعل المجهول. وقرأ ابن محيصة ومجاهد ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ ﴾ بفتح التاء مخفياً من سار. «الجبال» رفعاً. دليل قراءة أبي عمرو ﴿ وَإِذَا الْجِبَالَ سَيَّرْتَ ﴾ [التكوير: ٢٣] وهليل قراءة ابن محيصة ﴿ وَتَسَيِّرُ الْجِبَالَ سَيْرًا ﴾ [الطور: ١٠] واختار أبو عبيد القراءة الأولى «نسيّر» بالنون لقوله ﴿ حَشَرْنَاهُمْ ﴾. ومعنى «بارزة» ظاهرة، وليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان؛ أي قد اجتثت ثمارها وقلعت جبالها، وهدم بنيانها؛ فهي بارزة ظاهرة. وعلى هذا القول أهل التفسير. وقيل: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ أي برز ما فيها من الكنوز والأموات؛ كما قال ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق: ٤] وقال ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ٢] وهذا قول عطاء. ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ ﴾ أي إلى الموقف. ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أي لم نترك؛ يقال: غادرت كذا أي تركته. قال عترة:

غَادَرْتَهُ مَتَعَفَّرًا أَوْصَالَهُ وَالْقَوْمَ بَيْنَ مُجَرَّحٍ وَمُجَدَّلٍ

أي تركته. والمغادرة الترك؛ ومنه العُبدْر؛ لأنه ترك الوفاء. وإنما سمي الغدير من الماء غديراً لأن الماء ذهب وتركه. ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها. يقول: حشرننا برّهم وفاجرهم وجنّهم وإنسهم.

## ﴿ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ ﴿ صَفًّا ﴾ نصب على الحال. قال مقاتل: يعرضون صفًّا بعد صفٍّ كالصفوف في الصلاة، كل أمة وزمرة صفًّا؛ لا أنهم صفٌّ واحد. وقيل جميعاً؛ كقوله ﴿ ثُمَّ أَتَوْا صَفًّا ﴾ [طه: ٦٤] أي جميعاً. وقيل قياماً. وخرّج الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن منده في كتاب التوحيد عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى ينادي يوم القيامة بصوت رفيع غير فظيع يا عبادي أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون أحضروا حجتكم ويسروا جواباً فإنكم مسؤولون محاسبون. يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب».

(١) لم أجده هكذا.

قلت: هذا الحديث غاية في البيان في تفسير الآية، ولم يذكره كثير من المفسرين، وقد كتبه في كتاب التذكرة، ومنه نقلناه والحمد لله.

﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي يقال لهم: لقد جئتمونا حفاة عراة، لا مال معكم ولا ولدًا. وقيل فرادى؛ دليله قوله ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤] وقد تقدم. وقال الزجاج: أي بعثناكم كما خلقناكم. ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ هذا خطاب لمنكري البعث؛ أي زعتم في الدنيا أن لن تبعثوا وأن لن نجعل لكم موعداً للبعث. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرُلًا» قلت: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض» (١).

«غُرُلًا» أي غير مختونين. وقد تقدم في «الأنعام» بيانه.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَقَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ «الكتاب» اسم جنس، وفيه وجهان: أحدهما أنها كتب الأعمال في أيدي العباد؛ قاله مقاتل. الثاني أنه وضع الحساب؛ قاله الكلبي، فعبّر عن الحساب بالكتاب لأنهم يحاسبون على أعمالهم المكتوبة. والقول الأول أظهر؛ ذكره ابن المبارك قل: أخبرنا الحكم أو أبو الحكم شك نعيم عن إسماعيل بن عبد الرحمن عن رجل من بني أسد قال قال عمر لكعب: وَيْحَكَ يَا كَعْبُ حَدَّثْنَا مِنْ حَدِيثِ الْآخِرَةِ؛ قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا كان يوم القيامة رُفِعَ اللُّوحُ الْمَحْفُوظُ فلم يبق أحد من الخلائق إلا وهو ينظر إلى عمله قال ثم يؤتى بالصحف التي فيها أعمال العباد فتشر حول العرش، وذلك قوله تعالى ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَقَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ قال الأسدي: الصغيرة ما دون الشرك، والكبيرة الشرك، إلا أحصاها قال كعب: ثم يدعى المؤمن فيعطى كتابه بيمينه فينظر فيه فإذا حسنته باديات للناس وهو يقرأ سيئاته ليكلا يقول كانت لي حسنات فلم تذكر فأحب الله أن يريه عمله كله حتى إذا استنقص ما في الكتاب وجد في آخر ذلك كله أنه مغفور وأنتك من أهل الجنة؛ فعند ذلك يُقْبَلُ إلى أصحابه ثم يقول ﴿هَازِمٌ أَرَعُوا كِتَابِيَةَ﴾ [١٩] إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٠] ثم يدعى بالكافر فيعطى كتابه بشماله ثم يُلْفَ فيجعل من وراء ظهره ويُلَوِي عنقه؛ فذلك قوله ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتِي كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [الانشقاق: ١٠] فينظر في كتابه فإذا سيئاته باديات للناس وينظر في حسنته لكيلا يقول أفاناب على السيئات. وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول: يا ويلتاه ضجوراً إلى الله تعالى من الصفائر قبل الكبائر. قال ابن عباس: الصغيرة التيسم، والكبيرة الضحك؛ يعني ما كان من ذلك في معصية الله عز وجل؛ ذكره الثعلبي. وحكى الماوردي عن ابن عباس أن الصغيرة الضحك.

قلت فيحتمل أن يكون صغيرة إذا لم يكن في معصية، فإن الضحك من المعصية رضاً بها

والرضا بالمعصية معصية، وعلى هذا تكون كبيرة، فيكون وجه الجمع هذا والله أعلم. أو يُحمل الضحك فيما ذكر الماوردي على التيسم، وقد قال تعالى: ﴿قَبَسَمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩] وقال سعيد بن جبيرة: إن الصغائر اللَّمَمُ كالمسيس والقُبَل، والكبيرة الواقعة والزَّنَى. وقد مضى في «النساء» بيان هذا. قال قتادة: اشتكى القوم الإحصاء، وما اشتكى أحد ظلماً، فإياكم ومحقرات الذنوب فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه<sup>(١)</sup>. وقد مضى. ومعنى ﴿أَحْصَاهَا﴾ عَدَّهَا وَأَحَاطَ بِهَا؛ وَأَضِيفَ الإحصاء إلى الكتاب توسعاً. ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أي وجدوا إحصاء ما عملوا حاضراً. وقيل: وجدوا جزاء ما عملوا حاضراً. ﴿وَلَا يَظَلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي لا يأخذ أحداً بجرم أحد، ولا يأخذه بما لم يعمله؛ قاله الضحاك. وقيل: لا ينقص طائعاً من ثوابه ولا يزيد عاصياً في عقابه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُم لَكُمْ عَدُوٌّ بَشَرٌ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝ ١٥ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ تقدم في «البقرة» هذا مستوفى. قال أبو جعفر النحاس: وفي هذه الآية سؤال، يقال: ما معنى ﴿فَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ ففي هذا قولان: أحدهما وهو مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى أنه الفسق لما أمر فعصى، فكان سبب الفسق أمره؛ كما تقول: أطعمته عن جوع. والقول الآخر وهو مذهب محمد بن قُطُوب أن المعنى: فسق عن رد أمره. ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾ وقف عز وجل الكسرة على جهة التبريح بقوله أفَتَتَّخِذُونَهُ يا بني آدم وذريته أولياء وهم لكم عدو؛ هي أعداء، فهو اسم جنس. ﴿بَشَرٌ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ أي بش عباد الشيطان بدلاً عن عبادة الله. أو بش إبليس بدلاً عن الله. واختلف هل لإبليس ذرية من صلبه؛ فقال الشعبي: سألني رجل فقال كهل لإبليس زوجة؟ فقلت: إن ذلك عرس لم أشهده، ثم ذكرت قوله ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ﴾ فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة فقلت نعم. وقال مجاهد: إن إبليس أدخل فرجه في فرج نفسه فباض خمس حبيبات؛ فهذا أصل ذريته. وقيل: إن الله تعالى خلق له في فخذه اليمنى ذكراً وفي اليسرى فرجاً؛ فهو ينكح هذا بهذا، فيخرج له كل يوم عشر بيضات، يخرج من كل بيضة سبعون شيطاناً وشيطانة، فهو يخرج وهو يطيره وأعظمهم عند أبيهم منزلة أعظمهم في بني آدم فتنة. وقال قوم: ليس له أولاد ولا ذرية، وذريته أعوانه من الشياطين. قال القشيري أبو نصر: والجملة أن الله تعالى أخبر أن لإبليس حبيلاً وذرية، وأنهم يوسوسون إلى بني آدم وهم أعداؤهم، ولا يثبت عندنا كيفية في كيفية التوالد منهم وحدوث الذرية عن إبليس، فيتوقف الأمر فيه على نقل صحيح<sup>(٢)</sup>.

قلت: الذي ثبت في هذا الباب من الصحيح ما ذكره الحميدي في الجمع بين الصحيحين عن

(١) صحيح إلى قتادة: الطبري (٢٥٨/١٥) في تفسيره.

قلت: وقوله: «إياكم ومحقرات الذنوب» حديث حسن: رواه أحمد (٤٠٢/١) في المسند عن ابن مسعود،

و(٣٣١/٥) عن سهل بن سعد رضي الله عنهما والإسنادان كلاهما حسن.

(٢) وقد سبق تضعيف هذه الآثار كلها.

الإمام أبي بكر البرقاني أنه خرج في كتابه مسنداً عن أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من رواية عاصم عن أبي عثمان عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكن أولاً من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها باض الشيطان وفرخ»<sup>(١)</sup>. وهذا يدل على أن للشيطان ذرية من صلبه، والله أعلم. قال ابن عطية: وقوله «وَفَرَّتْهُ» ظاهر اللفظ يقتضي الموسوسين من الشياطين، الذين يأتون بالمنكر ويحملون على الباطل. وذكر الطبري<sup>(٢)</sup> وغيره أن مجاهداً قال: ذرية إبليس الشياطين، وكان يعدهم: زلتبور صاحب الأسواق، يضع رأته في كل سوق بين السماء والأرض، يجعل تلك الرابة على حانوت أول من يفتح وآخر من يفلت. وثير صاحب المصائب، يأمر بضرب الوجوه وشق الجيوب، والدعاء بالويل والحرب. والأعور صاحب أبواب الزنى. ومسوط صاحب الأخبار، يأتي بها فيلقها في أفواه الناس فلا يجدون لها أصلاً. وداسم الذي إذا دخل الرجل بيته فلم يسلم ولم يذكر اسم الله بصرة من المتاع ما لم يُرفع وما لم يُحسن موضعه، وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه. قال الأعمش: وإني ربما دخلت البيت فلم أذكر الله ولم أسلم، فرأيت مطهرة فقلت: ارفعوا هذه وخاصمتهم، ثم أذكر فأقول: داسم داسم أعوذ بالله منه<sup>(٣)</sup> زاد الثعلبي وغيره عن مجاهد<sup>(٤)</sup>: والأبيض، وهو الذي يوسوس للأنبياء. وصخر وهو الذي اختلس خاتم سليمان عليه السلام. والولهان وهو صاحب الطهارة يوسوس فيها. والأقيس وهو صاحب الصلاة يوسوس فيها. ومرة وهو صاحب الزامير وبه يُكنى. والهفاف يكون بالصحاري يُضل الناس ويتيههم. ومنهم الغيلان: وحكى أبو مطيع مكحول بن الفضل النسفي في كتاب اللؤلؤيات عن مجاهد<sup>(٥)</sup> أن الهفاف هو صاحب الشراب، ولقوس صاحب التحريش، والأعور صاحب أبواب السلطان. قال وقال الداراني: إن لإبليس شيطاناً يقال له المتقاضي، يتقاضى ابن آدم فيخبر بعمل كان عمله في السر منذ عشرين سنة، فيحدث به في العلانية. قال ابن عطية: وهذا وما جانسه مما لم يأت به سند صحيح<sup>(٦)</sup>، وقد طول النقاش في هذا المعنى وجلب حكايات تبعد عن الصحة، ولم يمر بي في هذا صحيح إلا ما كان في كتاب مسلم من: أن للصلاة شيطاناً يسمى خُزْب<sup>(٧)</sup>. وذكر الترمذي: أن للوضوء شيطاناً يسمى الولهان<sup>(٨)</sup>.

(١) صحيح: مسلم (٢٤٥١/١٠٠) فضائل الصحابة عن سلمان رضي الله عنه.

(٢) هذا عند الطبري (٣٦٢/١٥) وهو ضعيف فإن فيه انقطاعاً بين ابن جريج ومجاهد.

قلت: ولا يصح هذا كله أبداً لعدم اعتماده على نص صحيح من الكتاب والسنة.

(٣) انظر السابق / نفسه.

(٤) إياك وهذه الأقوال التي سَوَدَ بها الثعلبي صفحات كتابه.

(٥) وهذا أيضاً أحذره على نفسك ودينك فهذا غيب يحتاج إلى شهادة من الله تعالى أو نبيه ﷺ ولا سبيل إلى ذلك

وإن ابتغيت نفقا في الأرض أو سلماً في السماء.

(٦) وهذا هو المعبر هنا.

(٧) صحيح: مسلم (٦٨/٢٢٠٣) في السلام عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه.

قلت: وتنطق بكسر الخاء، وبفتحةا.

(٨) ضعيف: الترمذي (٥٧) في الطهارة، وابن ماجه (٤٢١) في الطهارة وضمفه الترمذي وقال: وليس إسناده =

قلت: أما ما ذكر من التعيين في الاسم فصحيح وأما أن له أتباعاً وأعاوناً وجنوداً فمقطوع به، وقد ذكرنا الحديث الصحيح في أن له أولاداً من صلبه، كما قال مجاهد وغيره. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب فيتفرقون فيقول الرجل منهم سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدث<sup>(١)</sup>. وفي مسند البزار عن سلمان الفارسي قال: قال النبي ﷺ: «لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته»<sup>(٢)</sup>. وفي مسند أحمد بن حنبل قال: أنبأنا عبد الله بن المبارك قال: حدثنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي عن أبي موسى الأشعري قال: إذا أصبح إبليس بثّ جنوده فيقول من أضل مسلماً ألبسته التاج قال فيقول له القاتل لم أزل بفلان حتى طلق زوجته، قال: يوشك أن يتزوج. ويقول آخر: لم أزل بفلان حتى عتق؛ قال: يوشك أن يبر. قال ويقول القاتل: لم أزل بفلان حتى شرب؛ قال: أنت قال ويقول: لم أزل بفلان حتى زنى؛ قال: أنت قال ويقول: لم أزل بفلان حتى قتل؛ قال: أنت أنت<sup>(٣)</sup>! وفي صحيح مسلم عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا فيقول: ما صنعت شيئاً قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله قال فيدنيه أو قال: فيلتزمه ويقول: نعم أنت»<sup>(٤)</sup>. وقد تقدم. وسمعت شيخنا الإمام أبا محمد عبد المعطي بثّر<sup>(٥)</sup> الإسكندرية يقول: إن شيطاناً يقال له البيضاوي يتمثل للفقراء المواصلين في الصيام فإذا استحکم منهم الجوع وأضر بأدغمتهم يكشف لهم عن ضياء ونور حتى يملا عليهم البيوت فيظنون أنهم قد وصلوا وأن ذلك من الله وليس كما ظنوا.

تم الجزء العاشر من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الحادي عشر وأوله «الآية ٥١ من سورة الكهف»

= بالقوى، وأعله به (خارجة بن مصعب) أحد رواته وضعفه الألباني في الموضعين وهو عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

(١) صحيح موقفاً: مسلم (١٢/١) في المقدمة باب النهي عن الرواية عن الضعفاء.

(٢) صحيح: سبق قبل ثمانية تخريجات.

(٣) حسن: الهيثمي (١١٤/١) في مجمع الزوائد وعزاه للطبراني في الكبير وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط وبقية رجاله ثقات. وانظر الحاكم (٢٩٠/٤) وصححه.

(٤) صحيح: مسلم (٢٨١٣) في صفة القيامة قال ابن كثير (٨٥/١) في البداية: يروي بفتح النون بمعنى: نعم أنت ذلك الذي تستحق الإكرام، ويكسرها: أي نعم منك.

وقد استدل بعض النحاة على جواز كون فاعل نعم مضمراً وهو قليل، واختار شيخنا المحافظ أبو الحجاج الأول - يعني بفتح النون - ورجحه ووجهه بما ذكرناه والله أعلم. (أ. هـ)

(٥) الثغر: الموضع الذي يكون حداً فاصلاً بين بلاد المسلمين والكفار وهو موضع المخافة من أطراف البلاد. راجع: لسان العرب مادة (ثغر).